

د : محمد جلاء إدريس

أورشليم القدس

في الفكر الديني الإسرائيلي



سلسلة كتاب
القدس (٤)

• الكتاب : اورشليم القدس فى الفكر

الدينى الإسرائيلى

• المؤلف : د. محمد جلاء إدريس

• السلسلة : كتاب القدس

• قياس الصفحة : ١٤×٢٠

• رقم الإيداع : ٤١٧٣ / ٢٠٠١

• الترقيم الدولى : ٩٧٧.٥٢٧٤.٥٧.٥

• جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه

بكل طرق الطبع والنقل والتصوير

والترجمة والتصوير المرئى والمسموع

والحاسوبى.. وغيرها من الحقوق إلا

بإذن خطى من المؤلف ومن :

مركز الإعلام العربى:

ص. ب ٩٣ الهرم - الجيزة - مصر

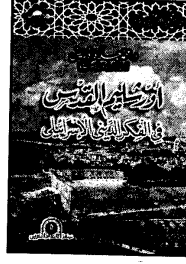
• هاتف : ٣٨٣٣٦١ / ٠٢٠٢

• فاكس : ٣٨٥١٧٥١ / ٠٢٠٢

• البريد الإلكتروني:

E.Mail: media- c@ie - eg. com

Home Page: www. Resalah4u.con:.



الطبعة الأولى

أبريل ٢٠٠١م



مقدمة

يحتاج التاريخ الإسرائيلي إلى جهد خارق للتحقق والتثبت منه، بعيداً عن عواطف ومشاعر الحب أو الكراهية، جهد مستقل عن تأثير المقدسات، وبدون ذلك سيجد الباحث الموضوعي، الساعي وراء الحقيقة، نفسه في موقف محير للغاية إزاء آثار هؤلاء القوم المدمرة للفكر والحضارة في كثير من مراحل التاريخ، وإزاء ما يفرضه الإيمان بموسى (عليه السلام) ومن سبقه من الأسلاف أو من لحقه من الأنبياء في هذا المجتمع من احترام واعتبار، قد يؤثران على رؤية الحقائق ومواجهة الوقائع بشجاعة وحيمة ونزاهة.

ولقد كنت أنه دائماً عند الحديث عن أنبياء بنى إسرائيل إلى التفرقة الفاصلة الحاسمة بين موقف الإسلام من هؤلاء الأنبياء - ذلك الموقف المكرم لهم، المعترف بنبوتهم وفضلهم، المنزه لهم عن كل النقائص والمثالب - وبين موقف العهد القديم، كتاب اليهود المقدس، الذي يتراوح بين إنصافهم وتشويههم، بين الإيمان بهم ونكرانهم، بين الإيجاب والسلب.

الموقف الإسلامى واضح، وله جانب واحد مضمي.

الموقف الإسرائيلي اليهودى متناقض متباين.

ولما كان العرب المسلمون هم الفريق المؤمن بسائر الأنبياء قبل نبيهم إيماناً يضع كل نبي منهم في مكانته اللائقة، ويعترف بدوره التاريخي.

ولما كان العرب المسلمون - كذلك - هم المستعمرون لجزء عزيز من وطنهم وأرضهم.

ولما كان العرب المسلمون هم المكتوون بنيران التحالف اليهودي - الغربى الاستعماري.

ولما كان العرب المسلمون يملكون من أدوات البحث العلمى ما لا يملكه الآخرون من لغة وتاريخ وإيمان صحيح لمفهوم الوحي وتنزيه للإله وتوحيد له.

كان العرب المسلمون هم المرشحون الآن لتولى مهمة التمهيد التاريخى لليهود، بعد أن قام غيرهم على مدى سنين طوال بهذه المهمة وفقدوا فيها الحياد والنزاهة.

وينبغى أن نضع فى الاعتبار أن العرب وقلة من اليهود المعاصرين هما الشعبان الساميان الوحيدان اللذان قاوما أحداث الزمن إلى يومنا هذا، بعد أن استوعبت العروبة أمما وشعوباً مختلفة على مدى التاريخ: البابليين والآشوريين والكنعانيين والفينيقيين والآراميين... إلخ، وجدت نفسها وجهاً لوجه أمام اليهود الذين يدركون جيداً فلسفة التاريخ، وأن التعايش العربى - اليهودى، لا بد وأن ينتهى حتماً إلى ذوبان طرف فى الآخر، وأن هذا الطرف الذى يتهدده الذوبان هو طرفهم.

إن ساسة الصهيونية وقادتها، عندما يتحدثون عن حدود أمة، لا يقصدون حدوداً جغرافية على نحو ما تطلب سائر الشعوب، بقدر ما يهدفون إلى حدود حضارية وديموجرافية بمعنى أنه ينبغى - فى اعتقادهم - أن يخلو الوطن اليهودى المنشود من العرب، والعكس كذلك، إن

مجرد التعايش العربى - اليهودى يشكل خطراً على الوجود اليهودى فى حد ذاته، وهذا الزعم هو الذى جعل أحد كبار مفكرهم «أحادهامام» فى بحث له بعنوان: «ليس هذا هو الطريق» يقول بأن الوطن القومى اليهودى الذى تنشده الصهيونية الحديثة فى فلسطين، قد يكون أشد الأمور خطراً على اليهود أنفسهم، ويؤكد «أحادهامام» فى بحثه على أن الوطن القومى الآمن لليهود هو وطن فكرى ودينى بحث، وطن يتكون من التوراة والتلمود.^(١)

ولقد كان للعرب على مر التاريخ دور فى الحفاظ على الوجود اليهودى: المادى والفكرى، وما أظن اليهود أنفسهم ينكرون هذا، فأجداد عرب فلسطين المعاصرين، كانوا قوة أساسية فى جيش داود (عليه السلام)، بل لم يجد داود ملجأً يحتمى فيه من بأس الملك الإسرائيلى شاول الذى طارده وسعى إلى قتله بكل وسيلة، لم يجد ملجأً سوى فى أرض الفلسطينيين وعند ملوكها. (صموئيل الأول ٢٧).

وقد أدرك المؤرخ الإنجليزى جفريز ذلك فقال: «إن العرب قد أسهموا بالنصيب الأكبر فى إعطاء العرش لسليمان»^(٢).

وكان للعرب دورهم فى إعادة اليهود إلى السكنى فى القدس بعد أن طردهم منها الغازون المستعمرون وحظروا عليهم العيش بها^(٣).

وكان لهم كذلك دور فى نهضة اللغة العبرية، وكتابة القوانين

(١) حسن ظاظا وآخرون، الصهيونية العالمية وإسرائيل، القاهرة، ١٩٧١، ص: ١١.

(٢) ظفر الإسلام خان، تاريخ فلسطين القديم، دار الفانس، بيروت، ط٢، ١٩٧٩، ص: ٤٤، ٤٥.

(٣) سنعرض لذلك تفصيلاً فى ثانيا الدراسة.

والتطبيقات اليهودية في العصر الذهبي لليهود في الأندلس .
لقد حان الوقت إذن، للعرب أيضًا، كي يصححوا مجرى التاريخ
ومساره بتمحيص علمي، وتفنييد للأساطير التي عشت في عقول
الغرب .

من هذا المنطلق تأتي هذه الدراسة التي تعتمد على النصوص العبرية
المقدسة بالدرجة الأولى، والممثلة في أسفار العهد القديم، كتاب اليهود
جميعًا، ونصف كتاب المسيحيين المقدس، لتعالج قضية أورشليم القدس
المعقدة أمام العالم، استقراء للتاريخ اليهودي من خلال النصوص اليهودية
للوقوف على حقيقة تاريخ المدينة، لنصل في النهاية إلى قضايا محددة
حول المسألة برمتها، ولتوضع أمام كل ساعٍ للحقيقة ومنشد لها .

هل حقًا أسس اليهود أورشليم؟

هل لم يكن للعرب فيها تاريخ وحياة؟

هل كان لليهود فيها وجود يضارع الوجود العربي؟

هل تواصل الوجود اليهودي في المدينة على نحو ما يتصف الوجود
العربي؟

هل كانت أورشليم مقدسة عند اليهود على مر تاريخهم؟

عشرات الأسئلة التي تطرح في هذا المقام، لا بد لها من إجابة تزيل
اللبس وتكشف الزيغ وتهدي الحيارى، وترشد «المفاوضين» .

هذا هو هدف دراستي، والله من وراء القصد .

* * *

تهديد

كانت حياة العبرانيين (في فلسطين) تشبه حياة رجل
يصر على الإقامة وسط طريق مزدحم، فتدوسه
الحافلات والشاحنات باستمرار، ومن الأول إلى
الآخر، لم تكن (مملكتهم) سوى حادث طارئ في
تاريخ مصر وسوريا وأشور وفينيقية، ذلك التاريخ
الذي هو أكبر وأعظم من تاريخهم».

هـ.ج. ونز

موجز التاريخ

يرى ميرسيا إلياد - رائد دراسة قداسة الأماكن - أن تسجيل الأماكن
المقدسة قد سبق كل تأملات الإنسان في طبيعة العالم^(١)، ولذلك يلاحظ
أن قداسة المكان قاسم مشترك بين شتى الثقافات، كما يعد الإيمان بها من
أساسيات العقائد الدينية الأولى في حياة الإنسان، ومن ثم يمكن الحديث
عما يسمى بـ«الجغرافيا المقدسة»، هذه الجغرافيا التي أثرت، وما زالت

Mircea Eliade, The Sacred and the Profane, trans. Willard J. Trask, (١)
New York, 1959, P. 21.

نقلاً عن: كارين آرمسترونج، القدس: مدينة واحدة، عقائد ثلاث، ترجمة: فاطمة نصر ومحمد
عناي، سطوة، القاهرة، ١٩٩٨، ص: ٢٩.

تؤثر، في تاريخ القدس.

وليس ثمة مبررات مادية بحتة لتبرير قداسة مكان بعينه، إذ إن هذا التقديس يرتبط بمفهوم المرء لذاته ارتباطاً وثيقاً، فقد يرتبط الإنسان بمكان ما لتجربة أو خبرة عميقة أعادت تشكيل حياته، أو بذكرات الطفولة، أو بشخص كان يمثل له أهمية خاصة، فلذا ما وقف هذا الإنسان عند هذا المكان، استرجع إحساسه بعمق الحياة التي عاشها فيه، ذلك الإحساس الذي يجعل للوجود الأرضي معنى وقيمة.

من هذا المنطلق، تتحقق «لأورشليم القدس» قداسة قلما حظيت بها مدينة على وجه الأرض، إذ تهفو إليها نفوس أتباع أكبر ثلاثة أديان وأكثرها انتشاراً في العالم، وإن كنا نفتقر إلى أي معلومات مباشرة عن الحياة بعامة، والحياة الدينية على وجه الخصوص في هذه المدينة قبل القرن الثامن عشر ق.م، بل لم يكتشف حتى الآن ما يشير إلى تفاصيل الحياة فيها حتى القرن الخامس عشر قبل الميلاد.

ولا تشير نصوص العهد القديم إلا إشارة عابرة ترجع إلى زمن إبراهيم (عليه السلام) (القرن ١٨ ق.م تقريباً) تفيد عبادة ملكها وحاكمها «ملكي صادق» لله العلي، وكيف أنه بارك إبراهيم ودعا له (التكوين: ١٨/١٤ - ١٩) واستعراض تاريخ أورشليم القدس يوحى بتلاحق ثقافي حضاري عنصري، عكسته عبارة سفر حزقيال:

«قال السيد الرب لأورشليم: مخرجك ومولدك من أرض كنعان. أبوك أموري وأهلك حثية» (٣/١٦).

وشاءت الأقدار أن يستمر هذا التلاحق، ويلازم تاريخ المدينة التي

شهدت في جميع مراحلها تعايشًا متعدد الأعراق والمشارب.

تلك حقيقة تاريخية تؤكدتها المكتشفات، ويعترف بها العهد القديم، لكنها حقيقة غير مقبولة من إله إسرائيل الذي يعتمد سياسة التطهير العرقي لشعبه، لذلك جاءت تحذيرات «يهوه» إله إسرائيل من الاختلاط بشعوب الأرض، وأدان حزقيال وسائر الأنبياء الإسرائيليين كل وجوه التعايش مع الآخر، بل لقد اعتبر الرب إله إسرائيل هذا التلاقح الثقافي العنصري «رجاسات» ينبغي التطهر منها.

وقداسة أورشليم، عند بني إسرائيل - على نحو ما سنبين في هذه الدراسة - هي قضية مضطربة للغاية، إذ إن موقف القوم منها غامض إلى أن وقع التدمير البابلي لها. لم يذكرها موسى (عليه السلام)، ولم تنعم بنزول التوراة فيها، ولم يكن هيكلها مقدسًا عند بانيه وورثته.

وما زالت قداسة أورشليم - حتى اليوم - محل خلاف بين الإسرائيليين أنفسهم، إذ يقول أمنون كوهين:

«إن مصدر الانطباعات القوية التي تعكسها القدس في أذهان العامة والخاصة عبر التاريخ وحتى أيامنا هذه ناجم بالطبع عن أهميتها الدينية والثقافية، صحيح أن بوادر التوحيد لم تنشأ في جبالها إلا أن المدينة كانت ولأول مرة عاصمة كيان سياسي، ألا وهو مملكة داود وسليمان، التي تبلور كيانها بفكرة الإيمان بإله واحد، وأصبحت اليهودية فيها شعارًا وواقعًا في الوقت نفسه»^(١).

(١) أمنون كوهين (محرر)، القدس: دراسات في تاريخ المدينة، ترجمة سلمان مصالحة، القدس، ١٩٩٠، ص: ٨.

إذن، لم تكن أورشليم هي تلك البقعة التي نشأ التوحيد في جبالها، بل على العكس - وسنرى ذلك في هذه الدراسة - كانت أورشليم من أكثر الأماكن تعبيراً عن الشرك وعبادة الأوثان.

لكن كوهين يحدد لنا سبباً جوهرياً وراء تقديس المدينة وهو أنها كانت ولأول مرة - بل للمرة الوحيدة حتى ١٩٤٨ - عاصمة كيان سياسي هو مملكة داود وسليمان.

فالتقديس هنا يكمن في أن أورشليم قد أصبحت رمزاً سياسياً، ولا أكثر من ذلك.

أما موسى برلمان وتيدي كوليك فيذهبان مذهباً آخر في تبرير التقديس: «تنبع أهمية أورشليم من عظماء الفكر الإسرائيليين الذين كانوا بها في العصور الماضية، الملوك، المفكرون، الأنبياء، الذين جعلوا من أورشليم مركزاً لهم. فمن أورشليم خرجت آراؤهم إلى العالم كله وغيرته، فقد أعلن إشعياء أنه: «من صهيون تخرج الشريعة، وكلمات الرب من أورشليم». . . مفهوم الخير والشر، الأخوة الإنسانية، محبة الخلق، الحكم العدل، وكانت هذه هي مبادئ العبريين الأوائل، لقد كانت أورشليم هي المنبر الذي من عليه انتشرت هذه المبادئ في العالم كله»^(١).

والرأى السابق ينطوى على كثير من المغالطات التاريخية والدينية من وجهة النظر اليهودية.

فلم تكن أورشليم مهبط وحى أو مصدر شريعة، فالتوراة نزلت على موسى (عليه السلام) في سيناء، والتلمود وضعت أسسه في بابل، بل إن المدارس الفقهية الأورشليمية التي ظهرت بين بقايا اليهود الذين تركهم

(١) موسى برلمان وتيدي كوليك، أورشليم (بالعبرية)، حيفا، ١٩٧٧، ص: ١٢.

البابليون فيها، أو فيما بعد، لم تكن فى نفس قوة مدارس اليهود فى بابل، ومن ثم ظل التلمود البابلى مسيطرًا على الفقه اليهودى حتى الآن. أما المفاهيم المزعومة التى عرفت فى أورشليم فهى على العكس تمامًا من تفاصيل تاريخها الوارد فى العهد القديم، والذى غلب عليه الشر لا الخير، والعداوة لا الأخوة، وكراهية الآخرين، والظلم والجور، ولعنات الرب وغضبه عليها - كما سنعرض فيما بعد - خير شاهد.

لم يكن لأورشليم ولا لمفكرها أى تأثير خارج أسوارها، فمن بيت لحم - مثلاً - خرج المسيح (عليه السلام) وانتشرت دعوته فيما بعد، وأرسى قواعد المحبة والسلام بين البشر، بينما حفلت دعوات الأنبياء الإسرائيليين - كما سطرته الأسفار - بدعوات عنصرية، وتطهير عرقى، وصل إلى درجة التخلص من الزوجات الأجنبية والأبناء.

أما إشعياهو ليفوفيتس فيقول: «إن أهمية أورشليم لليهودية واليهود هى قضية بديهية لنا فقط، وغير مفهومة وغريبة لثلثى البشرية، حيث لا يعنى مفهوم الشعب اليهودى والتاريخ اليهودى لهم شيئًا.

إن الزعم القائل بعدم التخلّى عن السيادة على جبل البيت لقدسته بالنسبة لليهودية ليس إلا نوع من النفاق السياسى الدولى الذى يكتسى بطابع دينى، فدولة إسرائيل العلمانية التى لا تعترف بالتزامات الدينية التوراتية والتشريعية، لا يحق لها استخدام المزايم الدينية.

إن أورشليم ليست «مدينة مقدسة» إلا من زاوية وصايا عبادة الرب المرتبطة بها، بمعنى آخر: من ناحية وعى دينى يسعى لتطبيق الوصايا، فالمدينة فى حد ذاتها والسيطرة عليها هى إرث ثمين من الوعى القومى، لكنها ليست شيئًا مقدسًا، فإزاء الشعور الدينى ليس ثمة قداسة إلا لعبادة

الرب، وكل تقديس آخر هو وثنية تامة تحل محل الإيمان بالله. إن الجمهور المتدين وزعماءه، الذين يعرضون المشكلة السياسية لأورشليم كمشكلة دينية، يسمحون لأنفسهم بعلمنة اليهودية، وقلب الدين، من عبادة الرب، إلى عبادة القومية^(١).

ربما كان التحليل السابق لفكرة قداسة أورشليم بالنسبة لليهود هو أكثر التحليلات التي تتفق والمنطق، بل والواقع.

فالقضية - إذن - سياسية بحتة، تصطبغ بألوان دينية براقعة، لتبهر عيون الناظرين إليها من يهود الشتات.

هي نوع من النفاق السياسي - على حد تعبير ليفوفيتس - من شأنه أن يقود إلى «علمنة اليهودية»، ذلك النفاق الذي دفع بن جوريون كي يعلن أن القدس «مثلما هي جزء لا يتجزأ من التاريخ اليهودي والعقيدة اليهودية وروح شعبنا، فإن القدس هي لب دولة إسرائيل»^(٢).

وهكذا، فإنه عندما تختلط المفاهيم، تضعف الحقيقة.

وهنا نسعى إلى البحث عن الحقيقة بين سطور أسفار العهد القديم، لنصل إلى ما يمكن أن يؤكد مزاعم بن جوريون وأمثاله أو يدحضها.

هنا نسعى إلى البحث عن الحقيقة، لطالبي الحقائق ومريديها، أما عشاق الأساطير، فليس لهم عندنا بضاعة.

* * *

(١) إشعياهو ليفوفيتس، اليهودية... الشعب اليهودي، ودولة إسرائيل، أورشليم وتل أبيب (بالعبرية)، ١٩٧٩، ص: ٤٢٣.

(٢) ميخائيل بريشر، «الصراع السياسي حول القدس» في: القدس، دراسات في تاريخ المدينة، تحرير: أمون كوهين، القدس، ١٩٩٠، ص: ٢٢٣.

الفصل الأول
أورشليم القدس
أسمائها.. عروبتها.. جغرافيتها

أولاً - أسماء المدينة

ربما يندر أن نجد مدينة قد تعددت أسماؤها واختُلف في تأويل هذه الأسماء على نحو ما نجد في أورشليم القدس .

وعما يشير الانتباه حقاً أن تغفل الأسفار الخمسة (التوراة) من العهد القديم عن ذكر هذه المدينة التي احتلت - فيما بعد - مكانة بارزة في الفكر الديني الإسرائيلي، إلا في مجال الذكر العارض الذي لا يعكس أية خصوصية لها، ونحن نعرف أن هذه الأسفار الخمسة (التوراة)، هي الجزء الوحيد المتفق عليه من بين أجزاء العهد القديم الثلاثة (التوراة، الأنبياء، المكتوبات) لدى سائر طوائف اليهود والنصارى، أما ما عداها فإنه محل خلاف بين إيمان وتصديق بكل حرف فيه، وبين إنكاره تماماً أو إنكار بعضه .

فكل ما جاء عن أورشليم القدس في غير هذه الأسفار الخمسة، لا يعترف به - مثلاً - اليهود السامريون، بناءً على موقفهم الرافض لسائر أجزاء العهد القديم .

عموماً، فلنقلب صفحات العهد القديم - بأجزائه الثلاثة - لنبحث عن مسميات هذه المدينة، فلا شك أن أسماءها تعكس جزءاً من تاريخها العريق .

ففي لمحة ود وحب، يخرج بعض الملوك من جيران إبراهيم (عليه السلام) للترحيب به وتهنئته بعد انتصاره على أعدائه واسترداده لما سلب منه من ممتلكات، وما سبى منه من أهل وعشيرة .

وهنا نجد «ملكي صادق - ملك شاليم - أخرج خبزاً وخمراً، وكان كاهناً لله العلى، وباركه وقال: مبارك إبراهيم من الله العلى مالك السموات والأرض». (التكوين ١٤ / ١٨ - ١٩).

و«شاليم» الواردة آنفاً هي كذلك «سالييم» الواردة في الزمور ٣ / ٧٦: «الله معروف في يهوذا، اسمه عظيم في إسرائيل، كانت في سالييم مظلمته، ومسكنه في صهيون».

والأرجح هنا أن «شاليم» ليست سوى اختصار للاسم الكامل الوارد في نصوص أخرى وصيغته «أورشليم»^(١).

وبغض النظر عما تشير إليه عبارات سفر التكوين من اسم عربى لحاكمها، واعتقاد دينى تنزيهى يخلو من آثار الوثنية (الله تعالى.. مالك السموات والأرض)، فإن شاليم تنزوى من على صفحات الأسفار الخمسة بعد ذلك، ولا تشكل شيئاً في تاريخ «الكون» المذكور بتفصيل مل فى هذه الأسفار، ولا فى تاريخ «القوم» الوارد بتفصيل أكثر مللاً.

ونصل إلى سفر يشوع، السفر السادس فى الكتاب المقدس، هذا السفر الذى يجسد بداية التطبيق العملى للوعد الإلهى اليهودى بالأرض لبني إسرائيل، عندما واجه يشوع تحالفاً من سكان البلاد الأصليين ضم ملوكاً خمسة، كان من بينهم «أدونى صادق ملك أورشليم». (يشوع ١٠ / ١).

ومع أن يشوع قد تمكن من أعدائه وهزم ملوك الأموريين الخمسة: ملك أورشليم، وملك حبرون، وملك يرموت، وملك الخيش، وملك

(١) دائرة المعارف للقراءة: (دائرة معارف العهد القديم) (بالعبرية)، إصدارات مؤسسة بياك، القدس، ١٩٥٨، للجلد ٣، ص: ٧٩٢.

عجلون، إلا أن أورشليم لم تكن هدفًا استراتيجيًا - أو دينيًا - للقوات الإسرائيلية الغازية بقيادة يشوع في ذلك الوقت، كما أنها كانت - على ما يبدو - محصنة يصعب اقتحامها من قبل يشوع وجنده، لقد دمر يشوع - حسب روايات السفر الذي يحمل اسمه - العديد من المدن: أريحا ولبنة ولخيش وجازر وعجلون ومقيدة وجبرون وحاصور، وأباد من فيها إبادة تامة، لكن التفاصيل الحربية الواردة في سفر يشوع لا تذكر لنا على الإطلاق أن الغازين الإسرائيليين قد نالوا من أورشليم وسكانها.

ومع أن سفر يشوع يخبرنا بسكنى بنى يهوذا مع اليبوسيين سكان أورشليم «وأما اليبوسيون الساكنون في أورشليم فلم يقدر بنو يهوذا على طردهم، فسكن اليبوسيون مع بنى يهوذا في أورشليم إلى هذا اليوم» (١٥ / ٦٣)، إلا أنه - على ما يبدو - لم تكن أورشليم ذات قبول لدى الإسرائيليين، إذ ثمة رواية في عصر القضاة تنبئنا بخلو المدينة من الإسرائيليين، وذلك في الإصحاح التاسع من سفر القضاة، في قصة ذلك الرجل اللاوى المتغرب الذي اتخذ له امرأة سرية من بيت لحم يهوذا، ثم زنت هذه المرأة وذهبت إلى بيت أبيها حيث مكثت أربعة أشهر حتى سار زوجها إليها «ليطيب قلبها ويردها»، وبقى في بيت حميه خمسة أيام، ثم أخذ زوجه وغلامه «وذهب وجاء إلى مقابل يبوس، هي أورشليم، ومعه حماران مشدودان وسريته معه» (٩ / ١٠).

ولم يكن ثمة إسرائيلي واحد يقيم في هذه المدينة حينئذ، بل كان سكانها اليبوسيون يقطنونها، وهذا ما تؤكد الفقرتان التاليتان للحدث السابق ذكره: «وفيما هم (اللاوى ومن معه) عند يبوس، والنهار قد

انحدر جداً قال الغلام لسيده: تعال نميل إلى مدينة اليوسيين هذه ونبيت فيها. فقال له سيده: لا نميل إلى مدينة غريبة حيث ليس أحد من بني إسرائيل هنا». (١٩ / ١١ - ١٢).

وتختفى المدينة لتظهر مرة أخرى في سفر صموئيل الثاني، وفي عهد داود، عندما نقل عاصمة مملكته من حبرون (الخليل) إليها، وكانت وقتئذ عامرة بسكانها اليوسيين، حيث تقول الفقرات:

«وذهب الملك (داود) ورجاله إلى أورشليم إلى اليوسيين سكان الأرض... وأخذ داود حصن صهيون. هي مدينة داود... وأقام داود في الحصن وسماه مدينة داود، وبني داود مستديراً من القلعة فداخلاً» (٥ / ٤ - ١٠).

وفي سفر أخبار الأيام الثاني، وفي عهد سليمان، نجد ما يلي:

«حينئذ جمع سليمان شيوخ إسرائيل وكل رؤوس الأسباط، رؤوس الآباء لبني إسرائيل إلى أورشليم لإصعاد تابوت عهد الرب من مدينة داود، هي صهيون» (٥ / ٢).

ويحمل الإصحاح الحادى عشر من سفر نحemia اسماً جديداً للمدينة على النحو التالى:

«وسكن رؤساء الشعب فى أورشليم، وألقى سائر الشعب قرعاً ليأتوا بواحد من عشرة للسكنى فى أورشليم مدينة القدس والتسعة الأقسام فى المدن» (١١ / ١).

ويتكرر الاسم السابق «القدس» فى أحد المزامير حيث جاء فيه:

«ارفعوا أيديكم نحو القدس وباركوا الرب. يباركك الرب من

صهيون، الصانع السموات والأرض» (١٣٤ / ٢ - ٣).

ويعود اسم «القدس» مرة أخرى للظهور على لسان النبي إشعياء:

«اسمعوا هذا يا بيت يعقوب المدعوين باسم إسرائيل، الذين خرجوا من مياه يهوذا الخالفين باسم الرب، والذين يذكرون إله إسرائيل ليس بالصدق ولا بالحق، فإنهم يُسمون من مدينة القدس، ويُسندون إلى إله إسرائيل، رب الجنود اسمه» (إشعياء ٤٨ / ١ - ٢).

هذه هي أسماء المدينة مثلما وردت في الأسفار اليهودية المقدسة، وهناك أوصاف لها سنذكرها في حينها.

فأول أسمائها هو ييوس، وهو بعينه أورشليم، ثم القدس.

وصهيون هي مدينة داود، لم بينها داود، فقد كانت قائمة، لكنه احتلها وسورها وأطلق عليها اسمه، ومدينة داود هذه - بالطبع - ليست هي أورشليم القدس، ونصوص العهد القديم تفرق دائماً بين صهيون - أو مدينة داود - وأورشليم القدس:

«سبحي يا أورشليم الرب. سبحي إلهك يا صهيون»

(مزمور ١٤٧ / ١٢).

«يقول الرب الذي له نار في صهيون، وله تنور في أورشليم»

(إشعياء ٣١ / ٩).

«أنا أولاً قلت لصهيون هاهم، ولأورشليم جعلت مبشراً»

(إشعياء ٤١ / ٢٧).

وصهيون قلعة داخل أورشليم، فهي جزء من المدينة.

ومما يلفت الانتباه، أن هذه الأسماء جميعاً: صهيون، يروشالايم (أورشليم)، القدس، ليست أسماءً عبرية أو يهودية، ولا يمكن ادعاء ذلك بأى وجه من الوجوه، وإنما هى كنعانية، عرفت بها المدينة قبل أن يدخلها الإسرائيليون.

وأول ذكر لأورشليم ورد فى تلك النصوص المصرية القديمة المعروفة باسم نصوص اللعنة، وهى شذرات من الفخار عليها نقوش بالمصرية الهيراطيقية القديمة، تتضمن - حسبما فسرها الأثريون - أسماء البلاد والمدن والحكام الذين كانوا يعادون مصر، وكانت العادة آنذاك هى كتابة أسماء الأعداء على أوانى يتم تحطيمها فى طقوس سحرية تأثرية، أى ترمى إلى التسبب فى اندحار هؤلاء الأعداء، ويرى العلماء أن تاريخ تلك الأوانى يرجع إلى زمن حكم الفرعون سيزوستريس الثالث (١٨٧٨ - ١٨٤٢ ق.م)، وضمت أسماء ١٩ مدينة كنعانية كانت «روشاليموم» من بينها.

وتدل أسماء أمراء أورشليم الواردة فى تلك النصوص المكتشفة على أن أهل أورشليم - شأنهم فى هذا شأن أهل سوريا - كانت لهم أصولهم السامية الغربية، وأنهم يشتركون معهم فى نفس النظرة إلى العالم^(١). وعاد اسم أورشليم مرة أخرى للظهور - فى الوثائق المصرية أيضاً - حيث ورد فى وثائق تل العمارنة التى يرجع تاريخها إلى القرن الرابع عشر ق.م (يوروساليم)، كما وردت فى مخطوطات سنحاريب الآشورية (يوروساليمو)^(٢).

(١) كارين أرمسترونج، مرجع سبق ذكره، ص ٢٧، ٢٨.

(٢) Ency clopaedia Judaica, Vol. 9, p.1379.

وتشير المكتشفات السابقة إلى أورشليم كمدينة كنعانية، حيث لم تكن في أرض كنعان وقتئذ دولة متحدة، وإنما جمع من تكتلات قبلية شبه جوارلة، ومدن قليلة يسيطر على كل منها «ملك» يخضع بشكل عام لإحدى القوتين العظميين آنذاك: مصر جنوبًا، وآشور شمالاً^(١).

ولقد ذهب العلماء في تبريرهم لاسم المدينة مذاهب شتى، يمكن الوقوف على أبرزها فيما يلي:

هناك شبه إجماع على أن الاسم «يوس» نسبة إلى اليوسيين سكان المدينة، وهم فرع من الكنعانيين الساميين^(٢)، وتتضح نسبة المدينة إلى سكانها كذلك من نص سفر القضاة الذي ذكرناه آنفًا حيث ورد فيه: «وفيما هم عند ييوس... قال الغلام لسيدة: تعال نجيل إلى مدينة اليوسيين».

وكان اليوسيون يسكنون القدس وما حولها، وذلك على نحو ما يظهر من فقرات العهد القديم في سفر يشوع (٨ / ١٥، ٦٣) وسفر القضاة (١ / ٢١، ١٩ / ١٠)، وربما كان «يوس» أحد أبناء كنعان، إذ ورد في سفر التكوين ١٠ / ١٥ - ١٦ ما يلي:

«وكنعان ولد صيدون بكره وحثًا واليوسى والأمورى والجرجاشى... وإن كان سفر التكوين يخالف الحقائق التاريخية - ربما لدوافع نفسية بحتة عند كاتب السفر - حيث يجعل كنعان من أبناء حام «وبنوحام كوش ومصرإيم وقوط وكنعان» (٦ / ١٠)، بينما هو من نسل سام.

(١) موسى برلمان وتيدى كوليك، أورشليم، مرجع سبق ذكره، ص: ١٥.

(٢) سيد فرج راشد، القدس عربية إسلامية، د. ن، ط ٢، ١٩٩٥، ص: ٣١.

وقد ظل اسم ييوس ملازمًا للمدينة وعلماً عليها (قضاة ١٩/ ١٠) حتى تمكن داود من غزوها وتغيير معالمها (صموئيل الثاني ٩/ ٥ ، أخبار الأيام الأول ١١/ ٧ - ٨) .

أما أورشليم فقد نسب البعض إلى الإله المعبود في هذه المنطقة أيام هجرة اليوسيين ، وهو الإله شالم^(١) .

وقال آخرون باحتمال أن تكون صيغة أورشليم آرامية مكونة من مقطعين : الأول - «أور» بمعنى موضع أو مدينة ، والثاني «سالم» بمعنى السلام ، وهو غالباً اسم إله وثني لسكان فلسطين الأصليين ، وهو إله سلامة القوافل ، ومن ثم فكلمة «أورسالم» تعني «مدينة السلامة»^(٢) .

وزعم فريق آخر أن الاسم أورشليم يتضمن اسم الإله السورى «شالم» الذى قيل : إنه هو نفسه الشمس الغاربة أو كوكب المساء ، وأن ترجمة هذا الاسم هى : «شاليم وضع الأساس» ، حيث كان الناس فى العالم القديم بالشرق الأدنى والبحر المتوسط يعتبرون أن الاستيطان وتخطيط المدن من الأعمال الربانية^(٣) .

وقد وجدنا الزعم السابق مطروحاً كذلك فى دوائر المعارف العبرية مع التأكيد على «شولمانو» أو «شاليم» كإله سامى غربى^(٤) .

وهناك من ربط بين «أورشليم» وكلمة «شالوم» العبرية حتى يصبح

(١) محمد صبيح ، القفس ومعاركنا الكبرى ، دار الشعب ، القاهرة ، ١٩٧١ ، ص : ١٢٤ .

(٢) سيد فرج ، مرجع سبق ذكره ، ص : ٣١ .

(٣) كارين أرمسترونج ، مرجع سبق ذكره ، ص : ٢٧ - ٢٨ .

(٤) Encyclopaedia Judaica, Vol. 9, p.1379 .

الاسم ذا مغزى سياسى وهو «مدينة السلام»^(١).

ووفقاً لرؤية مسيحية إنجيلية، يرى شفيق مفار أنه «طبقاً لما يقرره العهد الجديد، دعيت المدينة باسم «يروشاليم» أو «يوساليم» (الذى تحول إلى «يروشلايم» ثم بات «أورشليم») نسبة إلى منشئها «وملكها» ملكى صادق الذى دعى بملك ساليم، أى ملك السلام (رسالة إلى العبرانيين ٧ / ١ - ٢، يوحنا ٣ / ٢٣) المذكور فى التوراة باسم «ملك شاليم» (تكوين ١٤ / ٨)^(٢).

وثمة ملاحظات لنا على تلك التخمينات الواردة فى تأويل أورشليم نوجزها فيما يلى:

١ - إن محاولة الربط بين «شاليم» وإله وثنى كنعانى مسألة فيها نظر، فالكتشفات التى أمدتنا بأسماء آلهة الكنعانيين العديدة لم تشر على الإطلاق إلى وجود إله كنعانى بهذا الاسم.

٢ - لم يكتشف - حتى الآن - أى معبد فى أورشليم يرجع إلى تلك الفترة التى ظهر هذا الاسم فيها، وليس من المعقول أن تسمى مدينة باسم إله - تعظيماً وتمجيذاً له - ولا نجد له معبداً يتعبد فيه سكان المدينة الذين أطلقوا عليها اسم معبودهم.

٣ - محاولة إيجاد علاقة ما بين الاسم، والكلمة العبرية «شالوم» بمعنى: سلام، هى محاولة لعبارة اسم المدينة، لا تعتمد على أسس منطقية أو تاريخية على الإطلاق، فليس ثمة وجود للعبرية يعتد به فى القرن

(١) موسى برلمان وبتلى كوليك، مرجع سبق ذكره، ص: ١٥.

(٢) شفيق مفار، المسيحية والتوراة، رياض الريس للكتب والنشر، لندن، قبرص، ١٩٩٢، ص: ٢٥.

التاسع عشر أو الثامن عشر قبل الميلاد، وهو الزمن الذى ظهرت فيه تسمية أورشليم، بل هناك فاصل بين ظهور هذه التسمية وظهور اللغة العبرية يصل إلى ثمانمائة عام^(١)، وتعترف أسفار العهد القديم ذاتها بعدم «عبرانية ويهودية» المدينة فى خطاب حزقيال لأورشليم: «هكذا قال السيد الرب لأورشليم: مخرجك ومولدك من أرض كنعان، أبوك أمورى وأمك حثية» (حزقيال ١٦/٣).

٤ - ومع اعتقادنا بأنه ليس هناك ضرورة لتعليل الأسماء وتبريرها، إلا أنه بالإمكان أن نجد تبريراً وتعليلاً مقبولاً لتسمية أورشليم على ضوء موقعها الجغرافى.

فلقد كانت القدس قديماً محطة قوافل، وكانت محطات القوافل فى القديم كالموانئ البحرية تماماً، عبارة عن مراحل، تقوم القافلة - مثلاً - من عدن لتستريح فى صنعاء، ثم تقوم منها فتصل إلى مكة، ثم المدينة، فمدائن صالح... إلخ، وفى بلاد الشام مدن كثيرة كانت تقوم بمثابة محطات قوافل، وذلك مثل: تدمر ودمشق وطرابلس ومدينة شالم (أور بمعنى موضع أو مكان) التى معناها السلامة (ومادة الكلمة: السين - التى تقابلها فى بعض اللغات السامية الشين - واللام والميم تشير إلى معنى السلامة والسلام فى اللغات السامية) أى أن القافلة عندما تصل إليها تكون قد حظيت بالسلامة ووصلت إلى بر الأمان؛ لأنها بعد هذا تستطيع أن توازي ساحل البحر، وهنا لا ينقطع الماء ولا الأمن، وإذا حدثت عقبات

(١) أحمد سوسة، العرب واليهود فى التاريخ، العربى للإعلان والطباعة والنشر، دمشق، ط٢، د. ن، ص: ٣٩١.

في الطريق، فبالإمكان الانتقال بحرًا إما إلى تركيا، وإما إلى الساحل المصري، ومن هنا فالأولى أن يكون مفهوم اسم هذه المدينة هو: مدينة السلامة.

أما التكلف الذي نجده في التخمينات السابقة، فهو يُحمل الاسم ما لا يحتمل، والأمر الذي نريد التركيز عليه في هذا المقام لا يتعلق بمعنى اسم المدينة، وإنما بوجود هذا الاسم قبل أن تطأ أقدام الإسرائيليين أرض كنعان بعشرات القرون^(١).

وجدير بالذكر أن ثمة اضطراب في كتابة الاسم «يروشاليم» بالعبرية في العهد القديم، إذ كتبت بالياء قبل الميم ست مرات فقط، بينما كتبت بدونها حوالي ٦٥٦ مرة، وهذا يعكس - في حد ذاته - غرابة الاسم على اللغة العبرية، ناهيك عن أن الفتحة والياء والميم في نهاية الاسم العبري تفيد التثنية (شتايم = اثنان، عينايم = عيتان، أوزنايم = أذنان، زروعايم = ذراعا... إلخ)، بينما «يروشلايم» غير مثناة^(٢).

وأما تسمية القدس فقد رافقت المدينة منذ بداية تاريخها - أي قبل دخول العبريين وغزوهم للبلاد - عندما أقيمت فيها لأول مرة أماكن مقدسة خاصة بالعبادات القديمة، وقد ورد هذا الاسم على نحو ما ذكرنا

(١) حول أسماء القدس انظر: هابيل فهمي عبد الملك، «أورشليم القدس منذ أقدم العصور وحتى بداية العصر الروماني: دراسة تاريخية وثائقية» في: القدس التاريخ والمستقبل، أبحاث الندوة الدولية للقدس التي عقدها مركز دراسات المستقبل بجامعة أسبوط، ٢٩، ٣٠ من أكتوبر ١٩٩٦، تحرير: محمد إبراهيم منصور، جامعة أسبوط، ١٩٩٧، ص: ١٩٣، ١٩٤.

(٢) هناك كلمات معدودة في اللغة العبرية تنتهي بعلامة اللثى وليست مثناة، ويصعب تبريرها من الناحية اللغوية.

فى بداية هذا الفصل فى أسفار التوراة (انظر: إشعياء ١٤٨، نحميا ١١/١).

وقد ذكر المؤرخ اليونانى هيرودوت (٤٨٤ - ٤٢٥ ق.م) مدينة كبيرة فى الجزء الفلسطينى من الشام وسماها مرتين «قديس» (فى الجزء الثانى والجزء الثالث من تاريخه)، ويقول المؤرخ اليهودى الفرنسى سالومون مونك فى كتابه عن فلسطين: إن هذا الاسم على الأرجح هو القدس، محرّفًا عن اليونانية عن النطق الآرامى «قديشتا»^(١).

ومادة هذا الاسم وهى: القاف والذال والسين (التي تقابلها الشين فى بعض اللغات السامية) تتعلق بالعبادة والطهارة والتخصيص، ومن ثم فإن دلالة «القدس» ترتبط على نحو ظاهر وبين بالعبادة.

وبالنسبة إلى «حصن صهيون»، فقد كان لليبوسيين قلعة حصينة على الرابية الجنوبية الشرقية من أورشليم، كانوا يطلقون عليها اسم «صهيون»، ثم إنشأوها لحماية مدينتهم والدفاع عنها^(٢)، وربما كانت حصنًا خاصًا بملك أورشليم.

ولفظ «صهيون» كنعانى - وليس عبريًا - ولا يعرف معناه^(٣)، وقد صار يعرف هذا الحصن فى عهد المسيح (عليه السلام) باسم جبل صهيون (رسالة إلى العبرانيين ١٢/٢٢، إلى أهل رومية ١١/٢٦).

وقد ظلت قلعة «صهيون» منذ أن شيدت - ولا يعرف تاريخ تشييدها

(١) حسن ظاظا، أبحاث فى الفكر اليهودى، دار القلم، دمشق، ١٩٨٧، ص: ١٧.

(٢) شفيق مفار، مرجع سبق ذكره، ص: ٢٦.

(٣) Encyclopaedia Judaica, Vol. 9. p.1379.

- هي وأورشليم في حوزة أصحابهما البيوسيين حتى تم غزو داود لهما، والاستيلاء على هذا الحصن بدافع عسكري بحث دون أن يكون له أى محتوى ديني أو ترابط غيبي، حيث لم يكن لصهيون آنذاك علاقة لا «بالشعب» ولا «بالإله يهوه»، ولا حتى بكهنة ذلك الإله، إن حنكة داود العسكرية والسياسية هي الدافع الأوحده وراء غزو هذا المكان واحتلاله.

وفي إطار سياسة «تغيير المعالم» سارع داود إلى تغيير اسم الحصن، ونسبه إلى نفسه حيث سماه بمدينة داود (صموئيل الثاني ٥ / ٤ - ١٠)، وقد أكدت النصوص على ذلك المعنى حتى لا يحدث اختلاط على القارئ إذ جاء في سفر أخبار الأيام الثاني: مدينة داود. هي صهيون» (٢/٥).

وهكذا يتضح لنا أن أسماء المدينة الرئيسة كانت سابقة للوجود الإسرائيلي فيها، كما لا يمكن بحال من الأحوال رد هذه الأسماء إلى اللغة العبرية، إذ هي سابقة كذلك عن ظهور تلك اللغة، أما ما يوجد من تشابه بين هذه الأسماء وجذور بعض الألفاظ في اللغة العبرية فمرده إلى الأصل السامي لهذه الجذور.

وقد وردت عدة أسماء وصفات لمدينة أورشليم في أسفار العهد القديم، بل إن هناك سبعين اسماً مجدها في المدراس اليهودي لهذه المدينة^(١).

(١) انظر: أجادات شير هاشيريم (بالعبرية) فصل ١ / ٨ - ١٠، نقلًا عن شلومو دوف غويتاين، «القدس في الفترة العربية ٦٣٨ - ١٠٩٩م» في: القدس دراسات في تاريخ المدينة، تحرير: أمنون كوهين، القدس، ١٩٩٠، ص: ٢٥.

فمن الأسماء التي يزعم أحبار اليهود في التلمود أنها للقدس ما ذهبوا إليه من أن سام بن نوح قد سماها «شلم» أى السلام، وأن إبراهيم (عليه السلام) سماها «يراه» بمعنى الخوف، فقرر الرب تسميتها بالاسمين معاً «يراه - شلم» بمعنى «الخوف والسلام»^(١)، وكان من الطبيعي - وفقاً لاتجاهات الفكر الإسرائيلي الأسطورية - أن تحاك الروايات الفولكلورية حول «السلام» المتولد عن الخوف والرعب، لمزيد من صبغ اللون العبراني على اسم المدينة.

وأسماء وصفات اورشليم في العهد القديم تتراوح بين الإيجابية والسلبية، وإن فاقت الثانية الأولى.

فمن الصنف الأول نجد:

«مدينة الله» مزمو ٤٦/٤.

«مدينة الملك العظيم» مزمو ٢/٤٨.

«مدينة الحق» زكيا ٨/٣.

«إريثيل» أى أسد الله، إشعيا ١/٢٩.

«المدينة المقدسة» إشعيا ١/٥٢.

ومن الصنف الثانى نجد:

«مدينة الدماء» حزقيال ٢٢/٢، ٢٤/٦، ٩.

«المدينة السافكة الدم» حزقيال ٢٢/٣.

«وكر الرذائل» حزقيال ٢٢/٤ - ٢٢.

(١) انظر: بريشيت ربا/ ٥٧ (المدرش، الشرح الكبير على سفر التكوين).

«نجمة الاسم» حزقيال ٢٢/٥.

أما المسميات: إيليا كابيتولينا، إيلياء، بيت المقدس، فهي مسميات لم تظهر في ثانيا العهد القديم، الأمر الذي لا يحتم علينا الخوض في تفاصيلها^(١).

* * *

ثانياً - عروبة أورشليم

ثمة نصوص عبرية عديدة في أسفار العهد القديم تشير إلى السكان الأصليين للقدس من ناحية، كما تشير إلى منشأ هذه المدينة وأصولها من ناحية أخرى.

وطبقاً لمنهجنا في هذه الدراسة، نسوق بعض هذه النصوص، ثم نتلوها بما يعضدها أو يفندها من آراء الباحثين.

ففي سفر يشوع، وفي الإصحاح الخامس عشر (٦٣)، يطالعنا كاتب السفر بقوله: «وأما اليبوسيون الساكنون في أورشليم، فلم يقدر بنو يهوذا على طردهم، فسكن اليبوسيون مع بنى يهوذا في أورشليم إلى هذا اليوم».

وفي عصر القضاة، ومنع أن بنى يهوذا قد دمروا أورشليم، فإن سكانها الأصليين ظلوا على أرضها، ولم يتمكن الغازون من طردهم:

«وحارب بنو يهوذا أورشليم وأخذوها وضربوها بحد السيف وأشعلوا

(١) للمزيد حول أسماء أورشليم، انظر: أحمد عبد الغفور عطار، عروبة فلسطين والقدس، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٧٤، ص: ٢٤ - ٣٥.

المدينة بالنار... وبنو بنيامين لم يطردوا اليبوسيين سكان اورشليم، فسكن اليبوسيون مع بني بنيامين في اورشليم إلى هذا اليوم»
(قضاة ٨/١ - ٢١).

وقد مرت فترات زمنية في عصر القضاة، عمت الفوضى بين بني إسرائيل، ولم يكن في اورشليم أحد من الإسرائيليين على الإطلاق.
«وفي تلك الأيام حين لم يكن ملك في إسرائيل»، كانت اورشليم «مدينة غريبة حيث ليس أحد من بني إسرائيل هنا»
(قضاة ١/١٩ - ١١).

وواصل اليبوسيون وجودهم في اورشليم قبل غزوها من قبل داود:
«وذهب الملك (داود) ورجاله إلى اورشليم، إلى اليبوسيين سكان الأرض» (صموئيل الثاني ٦/٥).
بل إن داود بعد استيلائه على المدينة لم يطرد سكانها، بل صاهرهم وامتزج معهم:

«وأخذ داود أيضاً سرارى ونساء من اورشليم بعد محيئه من حيرون، فولد أيضاً لداود بنون وبنات، وهذه أسماء الذين ولدوا له في اورشليم. شموع وشوباب ونائان وسليمان...» (صموئيل الثاني ١٣/٥ - ١٥).

فداود قد اندمج إذن مع اليبوسيين سكان اورشليم الأصليين وصاهرهم، بل وأكثر من ذلك أنجب منهم سليمان ولى عهده، ووارث ملكه، وباني هيكل الرب، فاليبوسيون إذن أخوال سليمان وأهل أمه «بتشيع».

ثم يأتي النبي حزقيال ليضع لنا القول الفصل في أصول أورشليم، بحيث لا يدع مجالاً للتأويل أو المزايدة، فالقول قول الرب:

«وكانت إلى كلمة الرب قائلة: يا ابن آدم: عرف أورشليم برجاساتها، وقل: هكذا قال السيد الرب لأورشليم: مخرجك ومولدك من أرض كنعان أبوك أموري وأمك حثية». (حزقيال ١٦/١ - ٤).

تلك هي شهادات العهد القديم حول أورشليم: نشأتها وسكانها، فمن هم اليهوديون؟ ومن هم الأموريون والحثيون؟ ومن هم الكنعانيون؟ أعتقد أن التعريف بهؤلاء هنا ضرورة لا مناص عنها للوقوف على حقيقة أورشليم وسكانها.

هناك شبه إجماع بين العلماء على أن المنطقة الجنوبية من الجزيرة العربية - ومن ضمنها اليمن - هي الموطن الأصلي لتلك الشعوب السامية - المنحدرة من سام بن نوح (عليه السلام) - التي نزحت من جزيرة العرب في أعقاب حالة الجفاف التي حلت بها بعد الدورة الجليدية الرابعة، وقد اتجهت هذه القبائل إلى شمال الجزيرة العربية ومنها توزعت شمالاً وشرقاً وغرباً^(١).

من الحقيقة التاريخية السابقة يكون الساميون العرب أساس تلك الشعوب والأمم التي شكلت تاريخ تلك المنطقة من أرض الرافدين وسورية ولبنان وفلسطين.

(١) أحمد سوسة، حضارة وادي الرافدين بين الساميين وال سومريين، منشورات وزارة الثقافة والإعلام

العراقية، سلسلة دراسات (٢١٤) دار الرشيد للنشر، ١٩٨٠، ص: ٦٥.

ومع أنه ليس بالإمكان تحديد بدايات هذه الهجرات السامية من الجنوب إلى الشمال، فإن هناك من يقدر وقوع هجرة الساميين الذين استقروا في بلاد سوريا وفلسطين باسم الكنعانيين قبل ٢٥٠٠ ق.م.^(١)

والكنعانيون من أهم الشعوب التي نشأت وعاشت في المنطقة السورية قديماً، وهم يكونون سكان فلسطين ومنطقة الساحل الفينيقي والأجزاء الساحلية الشمالية في نهاية الألف الثانية ق.م، ويجمع اسم الكنعانيين عناصر متعددة منها: الأموريون والمؤابيون والعمونيون والأدوميون والعبريون، الأمر الذي يشير إلى وجود «عوامل ربط» بين هذه الشعوب، أبرزها البيئة الجغرافية الواحدة والأصول التاريخية المشتركة، والعادات والتقاليد المتشابهة، بالإضافة إلى الأصول اللغوية المتقاربة^(٢).

ويرى الأب دوفو أن بداية العصر البرونزي القديم (٣١٠٠ ق.م) هي الزمن الذي استقر فيه الساميون لأول مرة في فلسطين، وقد أطلق عليهم «الكنعانيون» تبعاً لإطلاق الكتاب المقدس، الذي يخلع هذا الاسم على السكان الساميين في فلسطين قبل وصول الإسرائيليين^(٣).

وتشهد نصوص التوراة باستقرار الكنعانيين العرب في فلسطين قبل زمن إبراهيم (عليه السلام) حتى نسبت المنطقة كلها إليهم، وسميت

(١) إسرائيل ولفسون، تاريخ اللغات السامية، القاهرة، ١٩٢٩، ص: ٥٤.

(٢) محمد خليفة حسن، رؤية عربية في تاريخ الشرق الأدنى القديم وحضارته، القاهرة، ١٩٩٥، ص: ١٩٦.

(٣) روجيه جارودي، فلسطين أرض الرسالات، ترجمة وتعليق عبد الصبور شاهين، دار التراث، القاهرة، د.ت، ص ٧٤.

الأرض باسمهم:

«فأخذ أبرام (قبل أن يسمى إبراهيم) ساراي امرأته ولوطاً ابن أخيه وكل مقتنياتهما التي اقتنيا، والنفوس التي امتلکا في حاران وخرجوا ليذهبوا إلى أرض كنعان، فاتوا إلى أرض كنعان، واجتاز أبرام في الأرض إلى مكان شكيم إلى بلوطة مسوره، وكان الكنعانيون حينئذ في الأرض» (تكوين ١٢ / ٥ - ٦).

«وكان الكنعانيون والفزيريون (وهم من العرب أيضاً) حينئذ ساكنين في الأرض» (تكوين ١٣ / ٧).

«أبرام سكن في أرض كنعان» (تكوين ١٣ / ١٢).

«وأعطى لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك. كل أرض كنعان ملكاً أبدياً، وأكون إلههم» (تكوين ١٧ / ٨).

وقد استمرت القدس - وفق ما تشير إليه وثائق تل العمارنة - مملكة كنعانية حتى حكم أسرة داود^(١).

ويطلق اسم كنعان قديماً على منطقة سوريا وفلسطين، وتعرف فلسطين في أسفار العهد القديم باسم كنعان (تكوين ٢٧ / ٦، ٣٧ / ١، ٤٢ / ٢٩، وغيرها).

كما اشتملت «أرض كنعان» - حسبما جاء في التوراة - على تلك المنطقة الواقعة بين شاطئ البحر المتوسط الشرقي من مدينة أوجاريت

(١) تداف ثمان، مقال بالعبرية في مجلة تسيون، أشير إليه في صحيفة عل همشار العبرية ٣١ / ٥

القديمة وحتى غزة وبين الصحراء السورية، ومن سهول أدنة في جنوبي آسيا الصغرى وإلى صحراء النقب جنوبي فلسطين.

وربما كانت مصادر دراسة هؤلاء الكنعانيين أقل من غيرهم، الأمر الذى يشكل بعض الصعوبة أمام الدارس لتاريخ هؤلاء القوم وحضارتهم، وإن كانت المكتشفات الحديثة قد حلت كثيراً من ألغازهم^(١).

وإذا كان هناك بعض الباحثين الذين يزعمون أن لفظ كنعان لم يكن دقيقاً فى الدلالة على القبائل التى سكنت فلسطين قبل الفتح الإسرائيلى، إذ وجدت فيها بطون ذكرت فى التوراة كالأموريين واليبوسيين كان موطنها فلسطين، وأن نصوص التوراة تشير إلى أن هذه القبائل لم تكن كنعانية^(٢)، فإننا لا نقبل روايات التوراة بوجه عام كشهادات تاريخية صادقة، وفى مجال الأنساب على وجه الخصوص، فهذه الروايات - على سبيل المثال - تجعل من كنعان ولداً لحام، وتستبعده من نسل سام - لتحل عليه اللعنة وفق الأسطورة الواردة فى سفر التكوين (٨/٩ - ٢٩).

فاليبوسيون قبيلة كنعانية - «وكنعان ولد صيدون بكره وحثاً واليبوسى...» (تكوين ١٥/١٠ - ١٦) - عربية، أنشأت مدينة القدس وسكنتها إلى ما بعد الغزو العبرى الإسرائيلى لها، إذ عاصر ملكها العربى «ملكى صادق» إبراهيم (عليه السلام) - حسب روايات سفر التكوين ١٧/١٤ - ١٩ - الذى أكرم وفادة إبراهيم وباركه من الله

(١) حول مصادر دراسة الكنعانيين انظر: سبينو موسكاتى، الحضارات السامية القديمة، ترجمة السيد يعقوب بكر، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر، د.ت، ص ١١٦، وما بعدها.

(٢) إسرائيل وفنسون، مرجع سبق ذكره، ص: ٥٦.

العلی^(١)، ويؤرخ البعض للوجود اليوسى الكنعانى العربى فى القدس بنحو ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد^(٢)، كما يربط آخرون بين الأصل العربى للكنعانيين واليوسيين وبين تأسيس مدينة القدس على أيدى هذه القبيلة، استناداً إلى أسماء ملوكها وحكامها، على نحو ما ورد فى الوثائق التاريخية^(٣).

فاليبوسيون إذن كنعانيون، والكنعانيون - العرب - جزء من تلك الشعوب التى عاشت غربى نهر الأردن وسميت كذلك بالأموريين Amorites، وانقسمت فيما بعد إلى سبع قبائل كبرى هى: الأموريون (العموريون)، والكنعانيون، والحثيون Hittites والحييون Hivites والجرجازيون Girgazites والفزريون Perizzites واليبوسيون Jebus-ites^(٤).

(١) انظر: أحمد سوسة، العرب واليهود فى التاريخ، مرجع سبق ذكره، ص: ٣٩١، حسن ظاظا، الصهيونية العالمية وإسرائيل، مرجع سبق ذكره، ص: ٢٤.

(٢) خالد محمد غازى، القدس: سيرة مدينة، دار الهدى للنشر والتوزيع، المنيا، ١٩٩٨، ص: ٢٣.

(٣) Demetri Baramaki, "From Ancient Times To The Begenning Of Muslim Era" in Jerusalem: The Key To World Peace Islamic council of Earopa, London, 1980, p. 124.

ونظر كذلك: ج م ن، فلسطين: إليكم الحقيقة، ترجمة: خليل الحاج، مراجعة: محمد أنيس، دار الكاتب العربى، القاهرة، ١٩٧١، ٣٦/١، نقلاً عن: ظفر الإسلام خان، تاريخ فلسطين القديم، مرجع سبق ذكره، ص: ٢٩.

(٤) Luke, H. & Keith Roach, Handbook of Palestine and Trans - Jordan, (٤) 3rd. ed., Macmillan & Co. Ltd., London, 1934, p.9.

وتشير وثائق تل العمارنة التي يرجع تاريخها إلى القرن ١٤ ق.م وتضم ٣٦٠ رسالة موجهة إلى فرعون مصر، منها ست رسائل من عبدى حيبا - حاكم القدس - يطلب فيها العون العسكرى لمواجهة أعدائه^(١). ويتضح من اسم الحاكم المقدسى (والذى يعنى: عبد الإله حيبا) وجود اليوسيين العرب فيها، فى نفس الفترة التى يزعم البعض وجود العبريين فيها استناداً إلى وثائق تل العمارنة المشار إليها آنفاً، حيث يطلب حاكم أورشليم الدعم لصد هجمات العابيرو أو الهابيرو، إذ راح البعض يرى فى لفظ الهابيرو أو العابيرو علاقة بالتسمية الإسرائيلية لهؤلاء القوم بالعبريين.

وليس ثمة علاقة بين حبيرو - هابيرو - عابيرو والعبريين، فنفس اللفظ قد وجد - بالإضافة إلى رسائل تل العمارنة - فى كتابات الكشيين فى العراق (كتابات بابلية) وفى نقوش الحثيين فى «بوغاز كوى»، وبعض النصوص الآشورية التى عثر عليها فى حفائر نوزى فى شمال العراق.

ويرى الفرنسى إدواردور أن العلاقة بين الكلمتين مشكوك فيها، إذ أن «حبيرو - عابيرو...» صفة بمعنى الرفيق أو الحليف أو الشريك وليست اسم علم، أما عبرى فهى مشتقة من فعل شائع فى كل اللغات السامية، ومنها العبرية والعربية، وهو الفعل «عبر» بمعنى تخطى واجتاز، والعبر بكسر العين وسكون الباء معناه: الجهة الأخرى من الوادى أو من الجدول

(١) حول مضمون هذه الرسائل، انظر: عبد الحميد زايد، مصر الخالدة، القاهرة، ١٩٦٦، ص: ٦٣٨، وانظر كذلك: جيوت السعد، أوهام التاريخ اليهودى، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، ١٩٩٨، ص: ٦٤ وما بعدها.

الصغير أو النهر أو البحر، وكانت تسمية «عبري» تطلق في حينها على كل من يهاجر من العراق عابراً نهر الفرات إلى الشام، وكان اليهود الأول كذلك^(١)، جاء في سفر يشوع (٢٤/ ٢ - ٣) ما يلي:

«هكذا قال الرب إله إسرائيل: إن آباءكم سكنوا في عبر النهر منذ الأزل، تارح أبو إبراهيم وأبو ناحور، وعبدوا آلهة أخرى، فأخذت إبراهيم أبائكم من عبر النهر، وسرت به في كل أرض كنعان، وأكثرت نسله وأعطيته إسحق».

وتشير كارين أرمسترونج في هذا المقام إلى الخطأ الشائع في اختراع العلاقة بين هابيرو أو عبيرو وعبري، وتري أن «الهبير» أو «العبيرو» لم يكونوا طائفة عرقية، بل طبقة من طبقات المجتمع الكنعاني، كانوا شعباً تحول إلى طائفة منبوذة في المجتمع، وطُرد من «المدن الدول» لأسباب اقتصادية أو سياسية، وقد أصبحوا أحياناً لصوصاً وقطاع طرق، وأحياناً أخرى جنوداً مرتزقة^(٢). وكان الناس يعتبرونهم من قوى التششت في كنعان، ومن هنا جاء قلق الحاكم الأورشليمي عبدى - حيبا من قبل سلوكيات هؤلاء.

ويؤكد ذلك الرأي وجود التسمية ذاتها في وثائق أخرى من مناطق

(١) حسن ظاظا، الصهيونية العالمية وإسرائيل، مرجع سبق ذكره، ص: ١٦، ١٧.

(٢) Ahlatronm of Ancient Palestine, pp. 234 - 235, 247 - 248, Amnon Ben Tor, ed. The Archeology of Ancient Israel, Trans. R. Greenberg, New Haven and London, 1992, p. 213.

نقلاً عن: كارين أرمسترونج، مرجع سبق ذكره، ص: ٥٤.

أخرى متباعدة غير أورشليم، الأمر الذي يفيد وجود جماعات من هؤلاء اللصوص والمرزقة، يثيرون القلق في أكثر من مكان، في الوقت الذي لا نملك فيه دليلاً واحداً على وجود العبريين الإسرائيليين - في تلك الفترة وهي القرن ١٤ ق.م - لا في أورشليم، ولا في غيرها بالطبع من مدن العراق، على نحو ما يزعم بعض الباحثين الإسرائيليين المعاصرين استناداً إلى القصص المنسوبة إلى آبائهم^(١).

نعود مرة أخرى إلى أصالة الوجود العربي في القدس واستمرارية الصلة والعلاقة بين العرب وتلك المدينة، إذ عثر على نقش مسماري يرجع إلى بدايات الألف الثاني قبل الميلاد للملك من ملوك بابل يدعى «نرام سين» يتحدث عن بطولات هذا الملك، وقد ورد في هذا النقش: «نرام سين، الملك القوي المسيطر على الأقاليم الأربعة... أخضع بلاد (مجان) وأخذ (مانيوم) أمير (مجان) أسيراً».

ويرى عالم الآثار الألماني فريتز هومل أن «مجان» قد تكون تحريفاً لاسم إقليم «معين» الواقع في اليمن، لكن الدكتور حسن ظاظا يرى أن لفظة «مجان» قد تكون في الأصل «معان» الواقعة في أقصى الشمال من الحجاز، شرقي خليج العقبة، وهو يعتمد في رأيه هذا على أن اسم هذا الأمير «مانيوم» الذي كان يحكم «مجان» - والذي ربما كان النطق الأشوري للاسم العربي «معن» بضم وتنوين - وهو اسم شائع بين عرب الشمال، وغير مألوف بين عرب الجنوب، إذ لا نجده - غالباً - في

(١) يوحنا إهاروني، أرض إسرائيل في زمن العهد القديم: جغرافيا تاريخية، (بالعبرية)، ١٩٨٨، ص:

النقوش اليمنية، بينما يكثر استخدامه في الشعر العربي الجاهلي، وكذلك في بعض النقوش الصنوية في الشمال^(١).

ولا نعدم وجود أدلة عديدة على أن العرب قد كانوا يشكلون جزءاً لا يتجزأ من العناصر المكونة لسكان فلسطين الأصليين قبل أن يتسرب الإسرائيليون إليها.

فعندما فكر إبراهيم (عليه السلام) في إسكان زوجه هاجر وابنه منها إسماعيل في مكة بعد مضايقات زوجه الأولى وغيرها، لم يكن تصرف إبراهيم (عليه السلام) هذا من قبيل الصدفة، إذ لا مجال للصدفة في تنظيم العلاقات وحل الخلافات عند رؤساء العشائر الأقدمين.

لقد اختار إبراهيم (عليه السلام) مكة لوجود علاقات قرابة وتحالف وذمة مع سكانها، وإلا لما خاطر بإرسال زوجه وابنه إلى هذا المكان القفر النائي، فعرب مكة آنذاك كان لهم وجود واتصال بفلسطين بدرجة جعلت رجلاً مثل إبراهيم (عليه السلام) يأمنهم على زوجه وولده.

حتى بعد إبراهيم (عليه السلام) بعدة أجيال، نجد القوافل العربية تشق فلسطين في أمن واطمئنان تحمل تجارتها من الشام إلى مصر، ودليل ذلك تسطره التوراة، في سفر التكوين، عندما تأمر أبناء إسرائيل ضد أخيه يوسف وطرحوه في الجب، وبيع للإسماعيليين العرب (٣٧/٢٥ - ٢٨).

وهناك العديد من نصوص العهد القديم التي تشير إلى الوجود العربي في شمال الجزيرة العربية بوجه عام، وفي فلسطين بصفة خاصة.

فقد كان للعرب وجود بارز عندما فكر اليهود المنفيون في العودة إلى

(١) سيد فرج راشد، مرجع سبق ذكره، ص: ٤٨.

أورشليم بعد تدميرها على أيدي البابليين، وبدعم من ارتخشثا - الملك الفارسي - يقول نحميا:

«ولما سمع سنبلط الحوروني وطوبيا العموني وجشم العربي هزأوا بنا واحتقرونا...» (نحميا ١٩/٢).

ويقول في موضع آخر:

«ولما سمع سنبلط وطوبيا والعرب والعمونيون والأشدوديون أن أسوار أورشليم قد رمت والثغر ابتدأت تسد غضبوا جدًا» (نحميا ٧/٤).

فالوجود العربي قد استمر في فلسطين في فترات لم يكن فيها وجود إسرائيلي، فلما عاد المسييون إلى بابل، كان للعرب كيان له القدرة على إقامة تحالفات مع الأنداد من الأمم والشعوب المجاورة.

وله الإسرائيليون كان يعي جيدًا وجود العرب، وقد أمر النبي إرميا بالذهاب إلى ملوكهم:

«لأنه هكذا قال لي الرب إله إسرائيل: خذ كأس خمر هذا السخط من يدي واسق جميع الشعوب الذين أرسلتك أنا إليهم... وكل ملوك العرب وكل ملوك اللقيف الساكنين في البرية» (إرميا ١٥/٢٥ - ٢٤).

فلو كان العرب حينئذ يعيدون عن بني إسرائيل في فلسطين، ما كان لهم شأن بهم ولا بالههم.

ثم إن عبارة «ملوك العرب» توحي بوجود كيانات سياسية عربية مستقلة ولها هيبتها في النفوس الإسرائيلية.

ولم يكن العرب كذلك مجرد رعاة ينتقلون من مكان إلى آخر، بل

كان لهم كيان اقتصادي واضح المعالم، هذا ما يحدده رب إسرائيل حين يقول لحزقيال:

«العرب، وكل رؤساء قيصار هم تجار يدك بالخرفان والكباش والاعتدة، في هذه كانوا تجارك» (حزقيال ٢٧/٢١).

وتجار عدن - وهم عرب بالطبع - يشير إليهم الرب قائلاً عنهم: «هؤلاء تجارك بنفائس وبأردية أسمانجونية ومطرزة...»

(حزقيال ٢٧/٢٤).

فلم يقتصر الوجود العربي إذن على المقيمين في فلسطين وما حولها، بل عرفت هذه البلاد أيضاً التجار العرب القادمين إليها من أقصى الجنوب.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن بعض النصوص العبرية - وغيرها كالبابلية الآشورية - تشير إلى لفظة «عرب» كمندلول جغرافي لإقليم محدد في منطقة فلسطين، وهو ما يعكسه نص سفر إشعياء الوارد في (١٣/٢١).

ولقد أشار «الفريد إرميا» في كتابه: «العهد القديم في ضوء الشرق القديم» إلى أن كلمة «عرب» في النصوص العبرية تشير إلى بعض أجزاء من فلسطين، وبخاصة الجزء الجنوبي منها، والذي يطلق عليه أحياناً اسم «يهودا»، والذي كان أهلاً ومسكوناً بالعرب^(١).

وتأكيداً على هذا الوجود العربي، تشير النقوش الآشورية إلى أن الإمبراطور الآشوري سلما نصر الثالث (٨٥٩ - ٨٢٥ ق.م) قد واجه

(١) فؤاد حسين على، فلسطين العربية، القاهرة، ١٩٧٣، ص: ٦٣.

تحالفًا مضادًا له يضم الآراميين وملكًا عربيًا اسمه «جندبو» (أي جندب)، كما تشير الحوليات الآشورية إلى أن ملك العرب قد أرسل إمدادات هائلة محملة على ألف جمل خلال موقعة قرقار (٨٥٤ ق.م)، أما السبي الآشوري لفلسطين والوارد في حوليات الملك سرجون الثاني (٧٢٢ - ٧٠٥ ق.م)، فقد كان من نتائجه أن تسلم الملك الآشوري الجزية من فرعون مصر ومن شمس - ملكة العرب.

وفي نقش آخر لسرجون الثاني نجد عملية ترحيل لبعض القبائل العربية (مثل ثمود والعباد) إلى السامرة بعد تدمير إسرائيل عام ٧٢٢ ق.م^(١).

وفي عهد التلمود والمشنا، نجد روايات لا حصر لها تشهد بأن الوجود العربي في إطار المجتمع الفلسطيني الأصلي لم ينقطع، أي أن الوجود العربي منذ بداية تاريخ أورشليم كان معروفًا من ناحية، ومتواصلًا من ناحية أخرى.

وهنا يسقط الزعم القائل بأن أورشليم قد عرفت العرب مع دخول عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) إليها، فالفتح العمرى للبلاد قد أدخل الإسلام ولم يدخل العرب، كما أنه طرد منها المستعمر الأجنبي - الذي لم يكن اليهود بالطبع، إذ تم طرد هؤلاء أيام الرومان عام ٧٠ م - ووضع حدًا لاحتلال دولة الروم للقدس.

أما الشعب الفلسطيني، فترى بعض المصادر^(٢) أن وجوده في كتعان -

(١) انظر: سيد فرج، مرجع سبق ذكره، ص ٤٩ - ٥٠.

(٢) يوحنا إهاروني، مرجع سبق ذكره، ص: ٢١٣، ٢١٤.

وانظر كذلك: الأب متى المسكين، تاريخ بني إسرائيل، وادي الطرون، القاهرة، ١٩٩٧، ص ٦٧.

فلسطين - يرجع إلى ما بعد الوجود الإسرائيلي بعدة أجيال، ضمن هجرة شعوب البحر التي تحركت شرقاً من جزر اليونان وآسيا الصغرى، ويحددون ذلك الغزو الفلسطيني بعصر الفرعون المصرى رعمسيس الثالث (١١٧٠ ق.م تقريباً).

لكننا نقف على بعض النصوص التوراتية التي تشير إلى وجود شعب فلسطيني وملك فلسطيني وأرض فلسطينية في عصر إبراهيم (عليه السلام) أى في القرن ١٨ ق.م تقريباً، أى قبل الغزو الإسرائيلي لفلسطين بحوالى خمسة قرون أو أكثر:

«فقطعا إبراهيم، وأبيمالك - ملك جرار الفلسطيني - ميثاقاً في بئر سبع، ثم قام أبيمالك وفيكول رئيس جيشه، ورجعا إلى أرض الفلسطينيين، وغرس إبراهيم أثلاً في بئر سبع، ودعا هناك باسم الرب الإله السرمدى، وتغرب إبراهيم في أرض الفلسطينيين أياماً كثيرة» (تكوين ٢١ / ٣٢ - ٣٤).

«وكان في الأرض جوع غير الجوع الأول الذى كان في أيام إبراهيم، فذهب إسحق إلى أبيمالك ملك الفلسطينيين إلى جرار، وظهر له الرب وقال: لا تنزل إلى مصر، اسكن في الأرض التى أقول لك. تغرب في هذه الأرض فأكون معك وأباركك؛ لائى لك ولنسلك أعطى جميع هذه البلاد» (تكوين ٢٦ / ١ - ٣).

«وزرع إسحق فى تلك الأرض، فأصاب فى تلك السنة مئة ضعف وباركه الرب، فتعاظم الرجل، وكان يتزايد فى التعاظم حتى صار عظيماً جداً، فكان له مواشٍ من الغنم ومواشٍ من البقر، وعبيد كثيرون، فحسده

الفلسطينيون، وجميع الآبار التي حفرها عبيد أبيه في أيام إبراهيم أبيه طمها الفلسطينيون وملأوها تراباً» (تكوين ١٦/١٢ - ١٧).

وليس لدينا دليل توراتي على أن الفلسطينيين - الذين عاصروا داود وآووه وعزروه، ثم قاتلهم بعد ذلك - هم فلسطينيون آخرون غير هؤلاء الذين كانوا في زمن إبراهيم السابق لداود بثمانية قرون تقريباً، ومن ثم، فإن الوجود الفلسطيني المستقر في هذه البلاد كان سابقاً للغزو الإسرائيلي اللاحق لخروج بني إسرائيل من مصر.

* * *

ثالثاً - جغرافية القدس

تقع مدينة القدس على خط عرض ٣١°٤٦'٤٥" شمال خط الاستواء، وعلى خط ٣٥°١٣'٢٥" شرق جرينتش، وهي هضبة غير مستوية تماماً يتراوح ارتفاعها بين ٢١٣٠ و ٢٤٦٩ قدماً، ويبلغ متوسط ارتفاع المدينة فوق سطح البحر الأبيض المتوسط من اتجاه الغرب ٢٥٠٠ قدم، ٣٨٠٠ قدم من سطح البحر الميت من اتجاه الشرق، وتبعد المدينة عن البحر المتوسط حوالي ٣٢ ميلاً غرباً، وحوالي ١٨ ميلاً عن البحر الميت شرقاً، ١٩ ميلاً عن الخليل (حبرون) جنوباً، ٣٠ ميلاً عن السامرة شمالاً، أما جوها فقارى صحراوى تتجاوز فيه الحرارة ٣٠ صيفاً، وقد تصل إلى خمس درجات تحت الصفر شتاءً، كما أن التفاوت في الحرارة بين الليل والنهار كبير، أمطارها شتوية متوسطة، وطوبتها متوسطة كذلك، تندر بها الثلوج، ليس بها أنهار، تحيط بها العيون التي في صلاحية مياهها

للشرب^(١).

وتتميز أورشليم القدس بموقع جغرافي استراتيجي، إذ منحنتها القدرة الإلهية أقوى التحصينات لحماية نفسها من الغزو، فهي تقع على أرض مرتفعة محاطة من جميع أطرافها بأودية عميقة: وادي «قدرون» شرقاً، ووادي «هنوم» غرباً، ويبدأ الواديان في الطرف الشمالي الغربي من المدينة ويلتقيان في جنوبها، وبذلك يحيطان القدس من أطرافها الثلاثة: الشرق والغرب والجنوب.

* * *

(١) حسن طافا، أبحاث في الفكر اليهودي، مرجع سبق ذكره، ص: ٢٠، سيد فرج راشد، القدس: عربة إسلامية، مرجع سبق ذكره، ص: ٣٣.

أودية المدينة

١ - وادى قدرون (الوادى الشرقى)؛

يبدأ هذا الوادى على بعد ميل ونصف الميل إلى الشمال الغربى من المدينة حيث يسير أولاً إلى الشرق إلى أن يصل إلى الزاوية الشمالية الشرقية لسور المدينة^(١)، ثم ينحرف بعد ذلك بميل حاد تجاه الجنوب فينحدر بين سور المدينة من الجانب الغربى وبين جبل الزيتون وتل الزيتون وتل المعصية من الجانب الشرقى^(٢) حتى يلتقى مع وادى «هنوم» المنحدر من الغرب، بعدها ينحدر المجرى الموحد إلى «مارسابا» المسمى بوادى «الراهب» ومن ثم يمتد إلى البحر الميت حيث يسمى «وادى النار»^(٣)، وكان يعرف قديماً بوادى قدرون (الوادى الأسود)، كما كان يسمى كذلك وادى «يهوشافاط».

وقد ورد ذكر هذا الوادى فى قصة داود وصراعه مع ابنه أبشالوم (صموئيل الثانى ١٥ / ٢٣ ، ٣٠) كما أحرقت فيه تمائيل معكة (الملوك الأول ١٥ / ١٣ ، أخبار الأيام الثانى ١٦ / ١٥).

ويبلغ طول هذا الوادى نحو كيلومترين، ويبلغ ارتفاعه فوق سطح البحر حوالى ٢١٧٩ قدماً.

٢ - وادى هنوم (الوادى الغربى)؛

ينحدر رأساً إلى الجنوب من شمال غربى المدينة، ثم ينعطف شرقاً بعد وصوله إلى حد المدينة الجنوبي حتى يتصل بالوادى الشرقى (قدرون) عند

(١) ستحدث عن أسوار المدينة فيما بعد.

(٢) يبلغ ارتفاع جبل الزيتون ٢٦٨٢ قدماً فوق سطح البحر، أما تل المعصية فيقع على الطرف الجنوبى من جبل الزيتون وسمى بهذا الاسم؛ لأنه كان موضع عبادة الأوثان فى عصر سليمان.

(٣) يسمى حالياً وادى «ستى مريم».

الموضع المعروف باسم «بئر أيوب».

ويسمى هذا الوادى بوادى «سلوان» وهو اسم النبع الموجود فيه، كما يعرف كذلك بوادى «بنى هنوم» نسبة إلى قبيلة كان يسمى بها الوادى قبل الوجود الإسرائيلى على نحو ما ورد فى العهد القديم (يشوع ٨/١٥)، نحemia ٣٠/١١، وادى هنوم، الملوك الثانى ١٠/٢٣، وادى بنى هنوم، يشوع ٨/١٥، ١٦/١٨، أخبار الأيام الثانى ٣/٢٨، إرميا ٣٢/٧ وادى ابن هنوم).

كما كان الجزء الجنوبي الشرقى من هذا الوادى يسمى «توفة» (إرميا ٣١/٧، الملوك الثانى ١٠/٢٣)، أو وادى القتل (إرميا ٣٢/٧، ٦/١٩)، وأجاز آحاز ومنسى - ملكا أورشليم - أولادهما بالنار - على عادة أهل كنعان الوثنية - ويصل ارتفاع هذا الوادى إلى ما يقرب من ٢٠٢٩ قدماً.

٣ - وادى الجبانين = الجبانة (صانعى الجبن)

يمتد هذا الوادى من الشمال الغربى إلى الجنوب الغربى حتى يتصل بوادى سلوان الذى يتصل بوادى قدرون شرقاً، ويقسم هذا الوادى المدينة إلى قسمين مؤلفين من هضبتين مستطيلتين: الغربية يحدها وادى هنوم من الغرب، والشرقية يحدها وادى قدرون من الشرق، وهذا الوادى مطموم الآن، كما ردم جزء منه فى أعمال توسعة لجبل صهيون وللحرم المقدس الواقع على جبل الموريا (هضبة الحرم الشريف).

٤ - وادى الأرواح:

ويعرف هذا الوادى كذلك بوادى العفاريت، ويلتف حول جبل صهيون من الغرب وحتى أقصى الجنوب، وتوجد به مدافن الموتى.

وقد ورد هذا الوادى فى يشوع ٨/١٥ باسم وادى الرفائيم أى وادى العفاريت.

جبال المدينة

١ - جبل الزيتون:

يواجه هذا الجبل أسوار الحرم من الجهة الشرقية، ويفصله عن الحرم وادى قدرون، ويعتبر من أهم الجبال المحيطة بالقدس من الناحية التاريخية، حيث يسميه التلمود «جبل المسح» (جبل التتويج)، حيث كانوا يأخذون الزيت المقدس من زيتونه، ويستعملونه فى تتويج ملوكهم، كما كانوا يحرقون عليه بقرة القربان الحمراء ويستخدمون رمادها فى تطهير الهيكل وإعادة تكريسه إذا ما دنسه شئ.

٢ - جبل بطن الهواء:

وهو امتداد لجبل الزيتون فى الزاوية الجنوبية الشرقية للقدس حيث يفصله عنها وادى سلوان الذى يتصل بوادى قدرون فى هذه النقطة نفسها.

ويعرف عند اليهود باسم «هار هامشحيث» (الجبل الفاضح)، وقد ورد فى سفر الملوك الأول (١١ / ٨-١) أن سليمان قد أقام عليه المعابد الوثنية لنسائه الأجنيات.

٣ - جبل صهيون:

يقع فى جنوب غرب القدس القديمة، وكانت عليه قلعة حصينة أقامها البيوسيون - سكان أورشليم الأصليون - وشيدوا حولها سوراً فى طرفه برج عال للسيطرة على المنطقة من فوقه، وقد انتزع داود هذا الحصن من

أصحابه، حيث نقل مقر حكمه إليه في السنة الثامنة من ملكه.

وكان هذا الجبل يعرف باسم الأكشمه أو «أوفل» (الملوك الثاني ٢٤/٥، الأنبياء الثاني ٣/٢٧، ١٤/٣٣، إشعياء ١٤/٣٢، ميخا ٨/٤)، ويبلغ ارتفاع جبل صهيون حوالي ٢٥٥٠ قدمًا فوق سطح البحر، ويتحدر باتجاه وادي قدرون.

وفي موضع حصن صهيون، أنشأ السلوقيون في عهد الملك اليوناني السلوقي أنطيوخوس الرابع (إبيفانوس) الذي حكم الشام من ١٧٥ - ١٦٤ ق.م، قلعة عرفت باسم «أكرا» ومن ثم أصبح يطلق على هذا الجبل اسم «جبل أكرا».

٤ - جبل موريا - جبل بيت المقدس:

وهو الحرم الشريف، حيث يوجد المسجد الأقصى، ورد اسم «موريا» في التكوين (٢/٢٢) في قصة الذبيح، حيث حدد الرب هذا الموضع كي يذبح إبراهيم (عليه السلام) ابنه عليه، وإن كان اليهود على خلاف في موضع هذه القصة، فاليهود السامرة يرون أن الحادثة كانت على جبل جرزيم بالقرب من نابلس، حيث قام أقدم هيكل للإسرائيليين، وقد أبطله داود بعد أن نقل عاصمته إلى القدس، أما سائر الطوائف اليهودية الأخرى فتزعم أن هذه الحادثة كانت على جبل «موريا» وعلى الصخرة الشريفة على وجه التحديد.

ويبلغ ارتفاع هذا الجبل حوالي ٢٤٤٠ قدمًا، وقد سمي المؤرخ اليهودي يوسفوسس هذا الجبل بالمدينة العليا، في مقابل المدينة السفلى التي هي القسم الجنوبي من الهضبة الشرقية، أي موضع حصن صهيون.

٥ - جبل المشارف:

سمى هذا الجبل بهذا الاسم؛ لأنه يشرف على القدس، ويستندى من شمالى شعفاط وينتهى بجبل الزيتون، ويقع فى شمالى بيت المقدس بانحراف يسير تجاه الشرق، يرتفع عن سطح البحر بنحو ٨٥٠ متراً، ويقوم على الطريق المؤدية إلى رام الله، ويسمى هذا الجبل كذلك بجبل الشهيد وجبل الصوانة، وكان معظم الفاتحين والغزاة للقدس يقيمون معسكراتهم عليه، على نحو ما فعل القائد الرومانى تيتوس عام ٧٠م، والصليبيون عام ١٠٩٩م تقريباً، ويمتعون أنظارهم بمراى المدينة المقدسة، ويطلق الأوروبيون على هذا الجبل اسم جبل سكوبوس (باليونانية تعنى الملاحظ أو المراقب)، بينما يسميه اليهود (هار هاتسوفين) وهى ترجمة للتسمية العربية، وقد أقام الإسرائيليون عليه الجامعة العبرية. ويعتبر البعض هذا الجبل امتداداً لجبل الزيتون لجهة الشمال الشرقى، ويقع بين جبل المشارف والقدس وادى الجوز^(١).

* * *

(١) اكتفينا هنا بأهم جبال القدس وأشهرها، إذ هناك جبال أخرى أقل أهمية وأقل شهرة عما ذكرناه آنفاً.

أسوار المدينة

كانت الأسوار في العصور القديمة تمثل ركنًا حصينًا من حياة المدن، ولم تكن أورشليم بدعًا في ذلك، وأقدم أسوار هذه المدينة يرجع إلى عهد اليبوسيين، السكان الأصليين لأورشليم، وكان يحيط بحصن ييوس «حصن صهيون»، ويشكل شبه مستطيل يتوسطه الحصن، وكان النفق الذي يسحب المياه من عين جيحون ينتهي إلى البركة داخل هذا السور، ولما احتل الملك داود الحصن في القرن العاشر قبل الميلاد، أقام أبنية أضافها إلى الحصن وقام بتغيير اسم المنطقة إلى «مدينة داود»، ثم اشترى بيدراً من أرونة اليبوسى شمال حصن ييوس وبنى فيه مذبحاً للرب.

ونرجح أن داود قد قام بتوسعة للسور اليبوسى ليضم داخله جبل المريا الذى يقع فيه البيدر المشترى، وطبيعى أن يكون سليمان قد قام بتقوية هذا السور وتوسيعه بعد أن أقام هيكله وقصره، وقد قام نبوخذ نصر فى غزوه لأورشليم بتدمير الهيكل والسور، ولا يوجد لهذا السور أى أثر حتى الآن.

بعد العودة الإسرائيلية إلى أورشليم من بابل، أعيد بناء السور فى عهد نحemia فى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد، والذى يعتبر بمثابة «السور الثانى» للمدينة، وقد اتبع البناء فى إعادة الإنشاء نفس الخط الذى كان يسير عليه السور القديم الذى كان الملك اليهودى قد أقامه عام ٦٤٤ ق.م إبان الحملة الآشورية فى عهد آشور بانيبال، ثم هدم فى عهد نبوخذ نصر سنة ٥٨٦ ق.م، وقد استعملت نفس الأسماء القديمة لأبواب السور

وأبراجه، والوصف التفصيلي لعملية إعادة البناء، الوارد في سفر نحemia (١/٣ - ٣٢) يعطينا صورة واضحة عن اتساع المدينة آنذاك، إذ يبدأ السور من باب الضأن شمال الهيكل ممتدًا إلى الغرب، ثم الجنوب، ثم الشرق، ثم الشمال ليعود ويتصل بنقطة البداية.

أما الأبواب حسب تسلسلها فهي ثلاثة في السور الشمالي (باب الضأن وباب السمك والباب العتيق) ويبين لنا سفر إرميا أسماء بناء كل باب من هذه الأبواب (١/٣ - ٦).

ويلاحظ أن السور عند الزاوية الشمالية الغربية أضخم من بقية أقسامه، وسبب ذلك هو أن هذا الجزء كان مجردًا من وسائل الدفاع الطبيعية على عكس ما كانت عليه بقية الأجزاء التي تحيط بها الأودية من كل أطرافها.

أما الأبواب الأخرى فهي: باب إفرايم غربًا، وباب الوادي والدمن جنوبًا، وأبواب: العين والماء والخيل والشرق والسجن والزاوية شرقًا (انظر نحemia ٣)، وأهم أبراج السور كانت تقع في الطرف الشمالي وفي الزاوية الشمالية الغربية المكشوفة وهي: برج المثة وبرج حنثيل وبرج التنانير (نحemia ٣).

ربما بقي سور نحemia (السور الثاني) حتى عهد المكابيين (١٦٧ - ٣٧ ق.م)، مع أن بطليموس الأول قد دك جانبًا منه عام ٣٠٠ ق.م، وأنطيوخوس الرابع جانبًا آخر عام ١٦٨ ق.م، وفي عهد هيرودس الكبير (٣٧ - ٤ ق.م)، تمت تقوية السور دون أى تغيير في تخطيطه على الأرجح، وقد شرع اليهود في عهد هيرودس أغريبا (٤١ - ٤٤م) في بناء

سور جديد في الجهة الشمالية، غير أن الإمبراطور الروماني قلوديوس منعهم من مواصلة العمل، فأنقروا البناء قبل حصار تيتوس لأورشليم عام ٧٠م، ويسمى هذا السور الثالث سور «هيرودس أغريبا»، وقد ضم منطقة «بيزثيا» الشمالية^(١).

ويحق لنا بعد هذا الوصف لمعالم أورشليم القدس أن نتساءل: هل حقًا ما زالت آثار اليهود باقية حتى الآن، يأتي إليها الباكون والمتطوعون إلى إعادة البناء مرة أخرى؟!

للإجابة على هذا التساؤل أقتطع تلك السطور لرئيس مركز إحياء التراث الفلسطيني، فيصل صالح الخيري إذ يقول^(٢):

«كانت مدينة القدس باستمرار محط أنظار الدارسين التوراتيين والطامعين في الكنوز الأثرية، إلا أن كثرة المباني التاريخية في المدينة وخيبة الأمل التي أصابت الكثيرين منذ أن عمل فيها الكابتن الإنجليزي (تشارلز وارن) في عام ١٨٦٧ بسبب صعوبة ربط آثارها بالحوادث التوراتية - أدنا إلى فترة انقطاع عن التنقيب فيها، ويظهر أن السلطات العثمانية كانت قد حذرت من منح تصاريح في المدينة حتى عام ١٩٠٩، ففي هذه السنة تمكن الكابتن الإنجليزي «باركر» من الحصول على تصريح بالعمل جنوبي منطقة الحرم الشريف، إلا أنه خدع المسئولين الأتراك وأخذ ينقب ليلاً في منطقة الحرم نفسه إلى أن اكتشفت السلطات أمره، وتمكن

(١) المزيد حول أسوار القدس في: مائير بن دوف، الإنسان والحجر في أورشليم، تل أبيب، ١٩٨٩، ص: ١٢ وما بعدها.

(٢) من مقال له عن القدس والآثار، نشر في صحيفة الأسبوع القاهرية، بتاريخ ٩ / ٤ / ٢٠٠٠.

من الهرب قبل صدور الحكم عليه، وقد ظلت القدس بؤرة اهتمام الباحثين التوراتيين.

وكلما انتهت بعثة من التنقيب فيها زاولت بعثة أخرى حتى الحرب العالمية الثانية، ففي عام ١٩٢٣ - ١٩٢٤ أشرف «فيل» على الحفر في الهضبة الجنوبية الشرقية من المدينة، وعمل في الوقت نفسه ١٩٢٤ - ١٩٢٥ في السفح الشرقي من الهضبة كل من (ماكلستر) و(دانكن) ونقب في السفح الغربي منها ١٩٢٧ - ١٩٢٨ (كروفوت) و(فتسجيرالد) بينما تركزت حفريات (بسوكنيك) و(ماير) في الفترة ما بين ١٩٢٥ - ١٩٢٧ ثم في عام ١٩٤٠ في الجزء الشمالي خارج سور المدينة القديمة بحثًا عن الأسوار التوراتية، أما (هاملتون) فقد كشف عام ١٩٣٠ ثم ١٩٣٧ - ١٩٣٨ عن أجزاء من المنطقة الممتدة بمحاذاة السور الشمالي الحالي عند باب العمود إلى الشرق منه، وأشرف (جونز) على حفريات القلعة في الفترة ما بين ١٩٣٤ - ١٩٤٠ م.

ويظهر أن أعمال التنقيب في القدس قد توقفت لمدة تزيد على عشرين عامًا، إلى أن واصلتها في عام ١٩٦٢ - ١٩٦٧ (كاثلين كنيون) بالاشتراك مع (رولاند ديفو) في الهضبة الجنوبية الشرقية فوق منطقة عين سلوان وفي المرستان وحى الأرمن وباب العمود، ومنذ الاحتلال الإسرائيلي للقدس عام ١٩٦٧ والحفريات تجري على قدم وساق وباستمرار في مناطق متعددة من المدينة للكشف عن المخلفات الأثرية التي يحاول الصهاينة ربطها بمروريات التوراة، خاصة بعد أن عجزت بعثات التنقيب السابقة عن الظفر بما يطمعون فيه، وأضحت القضية بالنسبة لهم قضية حياة أو موت... وتحول الحماس إلى هوس مرضى

وهاجس وطني، وأعلنت حالة الاستنفار على أشدها، وهياؤا لها كل ما تحتاجه من إمكانات، إلا أن مصير جهود هذه البعثات أو الغزوات الجديدة كان نفس مصير سابقتها، ومنها الحفريات التي قام بها المخربون الصهاينة (مازار) و(عميران) و(إيتان)، وكذلك (افيجاد) و(أفي يوناج) و(باحات) و(بروشى) وغيرهم من المخربين الذين ارتكبوا أفظع الجرائم في حق الآثار الخاصة بالشعب الفلسطيني طوال حقبات تاريخه.

ولم تكن نتيجة الحفريات التي قامت على قدم وساق - وما زالت - في القدس، «صفعة رنانة» على وجه الزاعمين بيهودية أثر بعينه، بل كانت «ضربة قاضية» لكل مدع بوجود «بقايا يهودية» في المناطق التي يزورون لها هوية يهودية عتيقة، يقول فيصل الخيري في مقاله السابق:

«كل الشعوب والأمم التي كانت لها صلة بالقدس وما حولها، تركت آثاراً لها شاهدة على تلك الصلة، إلا اليهود، فلم يعثر لهم على أية آثار في القدس... النطوفيون والغسوليون والعموريون والكنعانيون (اليبوسيون) والمصريون والهكسوس والبابليون والآشوريون والفرس واليونان والرومان، كل هؤلاء قد تركوا في القدس وما حولها آثاراً تدل عليهم إلا اليهود، لم يستطع اليهود العشور على أي أثر يؤكد أطروحاتهم في وجود أناس يسمون «إسرائيليين أو عبريين»، وما وجد من آثار يهودية تعود في أقدمها إلى القرن الثاني ق.م، وهي الفترة التي تكونت فيها الديانة اليهودية.

وأخيراً... وتحديدًا قبل انتهاء يوليو ١٩٩٨، أعلن فريق من علماء الآثار العاملين في دائرة الآثار الإسرائيلية بطلان الادعاء بأن «داود الثوراتي» هو الذي أنشأ القدس، ومما قاله العالم (روني ريك) في هذا الصدد: «آسف... لأن السيد داود والسيد سليمان لم يظهر في هذه

القصة». . وقد أعقب ذلك ما أسلفناه من تصريح (زئيف هرتسوج) ولم ينته الأمر عند هذا الحد، بل الأكثر خطورة في الأمر أن البعثات التنقيبية «غربية وإسرائيلية» قد غضت الطرف عن فلسطين، وشدت الرحال إلى اليمن وأفغانستان وغيرها، ليتقن الجميع بأن ساعة التوراة قد دنت، فيما يخص فلسطين بالطبع».

لقد ظهر في الآونة الأخيرة اتجاه جديد في العلاقة بين آثار فلسطين والأردن وعلاقتها بالكتاب المقدس، حيث مثل هذا الاتجاه كل من: لاب، دوفو، ديغر، فرانكن، وهم من رجال الدين العاملين بالآثار، وقد نادوا بالفصل الكامل بين الآثار الأردنية - الفلسطينية والعهد القديم، بحجة أنهما يختلفان اختلافاً جوهرياً من حيث النوعية، فالآثار ملموسات مادية، بينما الكتاب المقدس كتاب روحى دينى.

وإذا كانت هذه الدعوة ذات ظاهر يوحى بالرغبة فى استقلالية هذه الآثار عن الكتاب المقدس، إلا أنها فى حقيقة الأمر محاولة مفضوحة لتجنب المجابهة بينهما بعد أن برزت التناقضات الكثيرة بين المكتشفات الأثرية من جانب، وروايات العهد القديم من جانب آخر.

وجدير بالذكر أن الآثار الفلسطينية لا تدل بشواهدا على مخلفات يهودية، لسبب بسيط للغاية، وهو عدم استقرار اليهود على أرض فلسطين بوجه عام^(١).

(١) المزيد حول آثار فلسطين وتناقضاتها مع أسفار العهد القديم فى: حسين عمر حمادة، آثار فلسطين، دار قتيبة، دمشق، ١٩٨٣، ص: ٨٦ وما بعدها.

نحن - إذن - أمام قضية شائكة، مزاعم يهودية تستند إلى نصوص توراتية - لا نملك ما يؤكدتها - تدعى وجود آثار استيطانية يهودية منذ العهد الداودي - السليماني، وأدلة مادية - لا نملك التقليل من شأنها - تؤكد زيف الادعاءات السابقة.

والمشكلة ليست مشكلتنا نحن، فنحن نعتقد بصدق الأخيرة، ونقف متشككين تجاه الأولى، وإنما المشكلة تكمن فيمن يصدق الزعم اليهودي - وهم كثر - ويتغاضون عن العلم، وهم يدعون أنهم أربابه وصناعه.

* * *

الفصل الثانى
يهوه وأورشليم
أو
الرب والمدينة

لا تتفق تلك المكانة المبالغ فيها لأورشليم في الفكر الإسرائيلي وذلك التفاضل «المتعمد» عن ذكر مكانتها عند الرب - يهوه - إله بني إسرائيل. نعم، ذكرت المدينة منذ بدايات ظهور إبراهيم (عليه السلام) في سفر التكوين، لكن من الصعب أن نستخرج كلمة واحدة تدل على تفضيل لهذه المدينة من قبل إله إسرائيل، أو أمرًا بتقديسها.

الأسفار الخمسة لا تشير إلى أية «خاصية» تتمتع بها المدينة، ويمضي موسى إلى ربه دون أن يذكرها ولو بشطر كلمة.

يشوع والقضاة، لا يخبرونا في سفرهما عن أورشليم شيئًا يوحى بقداسة المدينة أو خصوصيتها.

سفر صموئيل، بما فيهما من أحداث، وما تضمناه من شخصيات، لا نشم رائحة المدينة من قريب أو بعيد في إصحاحاتهما التي بلغت نحو خمسة وخمسين إصحاحًا.

فصموئيل النبي لا يذكرها على الإطلاق، وربما لا يعرفها.

وشاول الملك لا يخبرنا بشيء عنها، ولا تبدو على خارطة اهتماماته العسكرية والملكية.

وداود، خلال صراعه مع شاول حميه، ومع الفلسطينيين في المنطقة، لا يبدي أدنى اهتمام بالمدينة، لا عسكريًا، ولا سياسيًا، ولا دينيًا، وهو رجل الحرب والسياسة، والذي اعتمده الرب - يهوه - مخلصًا لبني إسرائيل - شعبه المدلل - من أيدي جميع أعدائهم (صموئيل الثاني ١٨/٣).

ولقد «شاخ داود وتقدم في الأيام» (ملوك أول ١/١) ولم يذكر بعد أورشليم بأية وصية من قبل الرب، وعندما وصى داود ابنه سليمان لم يذكر أورشليم بأى ميزة أو نوع من قداسة اختصها بها الرب. ويموت داود، ويأتى سليمان ليرث ملك أبيه.

ويرتكب سليمان - وفق رواية سفر الملوك الأول (١/١١ - ١٠) كل الموبقات المهلكات فى أورشليم، ولا يحرك الرب - يهوه - ساكنًا لقداسة المدينة.

وفجأة، وبلا سابق إنذار، يحدث التحول الكبير الخطير، ويختار الرب أورشليم، هكذا فى عبارة عارضة.

«فغضب الرب على سليمان لأن قلبه مال عن الرب إله إسرائيل... فقال الرب لسليمان: من أجل أن ذلك عندك ولم تحفظ عهدي وفرائضى التى أوصيتك بها، فإنى أمزق المملكة عنك تمزيقًا وأعطيها لعبدك، إلا إنى لا أفعل ذلك فى أيامك من أجل داود أبيك، بل من يد ابنك أمزقها، على أنى لا أمزق منك المملكة كلها، بل أعطى سبطًا واحدًا لابنك لأجل داود عبدي، ولأجل أورشليم التى اخترتها». (ملوك أول ٩/١١ - ١٣).

رحمة الرب بسليمان، وعدم تمزيق المملكة فى «حياة عينه»، إنما هى من أجل داود، وربما نقبل هذه «الوساطة» التى تمتع بها سليمان، نتيجة تاريخ أبيه الحافل، وقلبه المتعلق بالرب، وجهاده فى سبيل وحدة مملكة إسرائيل.

لكننا نجد الفقرة الأخيرة من النص السابق وقد أقحمت فيها عبارة يظهر بوضوح انتحالها.

فإكرام الرب لداود شيء له «سوابق» في النصوص، لكن اختيار الرب لأورشليم، وتكريمها أو «تشفيغها» في سليمان أمر قفز فجأة إلى النص.

لم يسبق لإله إسرائيل أن اختار أورشليم.

ولم يسبق له أن بين لنا مكانتها وقديستها.

ولم يبين لنا - كذلك - أسباب هذا الاختيار المفاجئ.

ومن ثم، فنحن نشكك - بيقين بالغ - في أصالة العبارة الأخيرة من النص السابق.

وتتكرر تلك العبارة تكراراً يوحى بأن واضعها قد أدرك إضافتها، فراح يحشرها - في نفس الإصحاح - حشراً، لإقناع الناس بها، «وكان المريب يكاد يقول خذوني»:

«من أجل عبيد داود، ومن أجل أورشليم، المدينة التي اخترتها»

(٣٢/١١).

«أورشليم، المدينة التي اخترتها لنفسى لأضع فيها اسمي»

(٣٦/١١).

ولم يذكر لنا، لا الرب، ولا واضع العبارة، متى تم الاختيار، ولا أسبابه.

من هنا، يسعى واضع عبارة الاختيار إلى تزوين السفر بها، وتذكير الناس بعملية الاختيار، في محاولة واضحة منه لترسيخ هذه الصورة في الأذهان.

تتضح هذه الإضافة «الجبرية» في نص كالتالي:

«وأما رحبعام بن سليمان فملك في يهودا، وكان رحبعام ابن إحدى وأربعين سنة حين ملك، وملك سبع عشرة سنة في أورشليم المدينة التي اختارها الرب لوضع اسمه فيها من جميع أسباط إسرائيل واسم أمه نعمة العمونية» (ملوك أول ٢٤/٢١).

فالحديث في الفقرة السابقة يتمحور حول حدث تاريخي بعينه، هو تولي رحبعام بن سليمان الملك في أورشليم، ليس ثمة موضع لكلام من قبل الرب، ولكن، لما كانت عملية اختيار أورشليم المنسوبة إلى إله إسرائيل حديثة العهد في النصوص، فقد عمد واضع النص إلى تذييله بعبارة الاختيار المشهورة، لمزيد من تعميق المفهوم في النفوس.

ولنتخيل - مثلاً - حذف هذه العبارة «المدينة التي اختارها الرب لوضع اسمه فيها من جميع أسباط إسرائيل»، وسنجد أن العبارة - أسلوبياً - أكثر استقامة.

ويبدو أن الكاتب قد تيقن من استقرار فكرة اختيار إله إسرائيل لأورشليم في الأذهان، أو ربما حل محله كاتب آخر، إذ توالى الأحداث، وتوالى الملوك على أورشليم، دون أن نجد عبارة الاختيار مذكورة على نحو ما تكررت في الفقرات المتتالية التي أشرت إليها آنفاً.

ويتهى سفر الملوك الأول، بإصحاحاته الاثنتين والعشرين، ويهل علينا السفر الثاني، وفي الإصحاح الحادى والعشرين منه نجد عودة أخرى إلى عبارة الاختيار:

«وفي أورشليم التي اختارت من جميع أسباط إسرائيل أضع اسمي إلى الأبد» (٧/٢١).

يمكننا أن نشير هنا إلى ملاحظتين:

الأولى - حيث يفيد السياق أن لفظ «أورشليم» قد أصبح معادلاً للفظ «سبط» (أورشليم التي اخترت من جميع أسباط إسرائيل)، ومن ثم يمكن أن نستنتج أن المقصود من أورشليم هنا ليس المدينة، وإنما السبط الساكن فيها وهو سبط يهوذا، وهو بالفعل السبط الذي اختاره الرب منذ داود ليجعل اسمه فيه.

أما الثانية، فهي إضافة عبارة «إلى الأبد»، ولا نعرف هنا أى «أبد»! هل أبد الدهر، أم أبد مملكة داود ونسله؟!

عموماً، ستجد في نصوص كثيرة تالية أن لفظ أورشليم لم يعد يعنى به من قبل الرب والأنبياء تلك المدينة ذات الأسوار، بقدر ما يعنى به الساكنون فيها من سبط يهوذا.

وكان لا بد لهذا الاختيار من توابع، فالرب بنفسه يحمى أورشليم من أجله هو، وأجل داود عبده:

«لذلك هكذا قال الرب عن ملك آشور. لا يدخل هذه المدينة (أى أورشليم) ولا يرمى هناك سهمًا ولا يتقدم عليها بترس، ولا يقسم عليها مترسة، في الطريق الذي جاء فيه يرجع وإلى هذه المدينة لا يدخل، يقول الرب: وأحامي عن هذه المدينة لأخلصها من أجل نفسى ومن أجل داود عبدي» (ملوك ثان ١٩/٣٢ - ٣٤).

ويشدد إله إسرائيل على موقفه من أورشليم فيقول في موضع آخر لحزقيا وهو في مرض الموت:

«هأنذا أشفيك... وأحامي عن هذه المدينة من أجل نفسى ومن أجل

عبدى داود» (ملوك ثان ٥/٢٠ - ٦/١)^(١).

ونحن هنا أمام موقف محير، بل أمام ألغاز.

ما السر وراء الارتباط بين المدينة وداود، مع أنه لم يؤسسها أو حتى يقيم فيها هيكل الرب؟!

هذه واحدة.

والثانية هي حماية الرب لأورشليم والدفاع عنها ضد ملك آشور، بينما تقاعس عن نفس المدينة وحذلها ولم يدفع عنها نبوخذ نصر ولا نيتوس ولا الصليبيين...

وفي سفر أخبار الأيام الثاني يثبتنا إله إسرائيل بأنه قد تكلم إلى داود من قبل وأخبره أنه منذ أن أخرج شعبه من مصر لم يختار مدينة من جميع أسباط إسرائيل لبناء بيت ليكون اسمه فيها، لكنه اختار أورشليم (١/٦) - (٩)، وهنا نلاحظ أيضاً المعادلة بين أورشليم وأسباط إسرائيل، مما يعنى السبط الساكن أورشليم، وبخاصة أنه يربط بين اختيار أورشليم - السبط الساكن فيها - واختيار داود - الوارد في نفس النص - فكان داود خيار من خيار.

ومن المحير - أيضاً - في عملية الاختيار هذه، أن الرب يرفض أن يبنى داود - وكان قلبه مع الرب دائماً، أى كان سليم الاعتقاد، كامل الإيمان لمجرد أنه سفك بعض الدماء إذا ما قورن بغيره من ملوك إسرائيل، ويسمح لسليمان ابنه - ولم تطهر يديه تماماً من الدماء - وهو الذى لم يعبد الله حق عبادته، بل أشرك، وبنى مذابح لشتى الآلهة.

(١) وردت عبارة «أحلى عن هذه المدينة... مرة أخرى في أشعيا ٣٧/٣٥.

من المفروض أن يوكل بناء بيت الرب للأنقى والأورع، لكننا هنا - ودون سبب مقنع - نجد العكس.

ويتوالى ذكر عبارة «المدينة التي اخترتها» أو «المدينة التي اخترت» في عملية «غسيل دماغ» لقارئ النصوص^(١).

وفي عملية «خصخصة» أخرى لآلاله «يهوه»، بعد أن تمت «خصصته» لشعب إسرائيل وحسب، نراه يصبح «إله أورشليم» (عزرا ٧/٢٠).

وتطالعنا في سفر عزرا - كذلك - كلمة مثيرة للحيرة، وما أكثر حيرة المتعمق في «حكاوى» الأسفار.

يتضرع عزرا للرب معهداً نعمه قائلاً: «... لم يتركنا إلهنا، بل بسط علينا رحمة أمام ملوك فارس ليعطينا حياة، لنرفع بيت إلهنا ونقيم خرابته وليعطينا حائطاً في يهوذا وفي أورشليم» (٩/٩).

فهل تمت عملية خصخصة أخرى لمحتويات أورشليم بحيث انتفى الرب إله إسرائيل «حائطاً» فقط في أورشليم ليتبارك به العائدون من النفي؟!

ويبدو أننا لسنا وحدنا الذين وقفنا مرتبكين تجاه «الحائط» المذكور، إذ يقول شراح هذه الفقرة.

«حيث إن هذه الكلمة في أصلها تختلف عن الكلمة المستعملة لسور المدينة المذكور في نحميا، فقد اعتبر الكثيرون أنها تعبير مجازي للحماية

(١) انظر على سبيل المثال سفر أخبار الأيام الثاني ٦/١٤، ٣٨، ١٢/١٣.

والحراسة، ولكنها استعملت عن أسوار المدينة في (ميخا ١١/٧) ويوجد في (عزرا ٧/٤ - ٢٣) ما يدل على أن عمل بناء السور كان يجرى في ذلك الوقت^(١).

والشرح السابق لا يستقيم والسياق الذى يحمل شكر الكاتب للرب على منحه «الحائط» في أورشليم، ولو كان المقصود به سور المدينة - كما يزعمون - ما قال: في أورشليم؛ لأن السور حول المدينة وليس بداخلها. عمومًا، تبقى «عملية الشكر» الواردة من أجل «الحائط» لغزًا يضاف إلى ألغاز أورشليم التى لم يفسرها لنا الرب منذ أن بدأ عملية الاختيار التى هى في حد ذاتها: لغز الألغاز.

وتقدم لنا المزامير لوحات من «الحب الإلهي» و«الغزل اليهودي» في أورشليم وصهيون:

ف«الرب قد أحب أبواب صهيون أكثر من جميع مساكن يعقوب، قد قيل: بك أمجاد يا مدينة الله» (مزمور ١٨٧/٢ - ٣).

لقد تملك الرب المدينة، بعد أن كانت مدينة داود (صموئيل الثانى ٤/٥ - ١٠)، وأحبها أكثر من أى مدينة يسكن فيها نسل يعقوب، أما أمجاد المدينة فلا نعرفها، ولا توضحها لنا المزامير أو غيرها، فأمجادها ييوسية كنعانية على نحو ما أوردنا في الحديث عن تاريخ المدينة.

والرب لا يكتفى بحماية أورشليم، بل «يبنى أورشليم» (مزمور

(١) انظر: ج ستافورد رايت، شرح سفرى عزرا ونحميا في «تفسير الكتاب المقدس»، إعداد فرنسيس دالمن، دار منشورات الفير، بيروت، ١٩٦٦، ص: ٣٥٠.

(٢/١٤٧)، مع أننا رأينا أن الرب لم يمنع عنها بابل، ولولا كورش الفارسي، ربما ما أعيد بناؤها حتى اليوم.

ويحفل سفر إشعياء بما يجيش في نفس إله إسرائيل تجاه أورشليم، فقرات وفقرات يترنم بها الرب معرباً عن حبه للمدينة ودعمه لها، مجسدة في صهيون، ففي حوار بين صهيون وإله إسرائيل، يتم تصوير العلاقة بين الجانبين كالعلاقة بين الأم ورضيعها، فعندما تظن صهيون أن الرب قد نسىها يجيبها قائلاً:

«وقالت صهيون قد تركني الرب وسيدى نسيني، هل تنسى المرأة رضيعها فلا ترحم ابن بطنها، حتى هؤلاء ينسين وأنا لا أنساك، هوذا على كفى نقشتك، أسوارك أمامي دائماً، قد أسرع بنوك، هادموك ومخربوك منك يخرجون، ارفعى عينيك حواليك وانظري، كلهم قد اجتمعوا أتوا إليك. حتى أنا يقول الرب إنك تلبسين، كلهم كحلى وتنطقين بهم كمروس، إن خربك وبراريك وأرض خرابك إنك تكونين الآن ضيقة على السكان ويتباعد مبتلعوك، يقول أيضاً في أذنيك بنو ثكلك: ضيق على المكان وسعى لي لأسكن، فتقولين في قلبك من ولد لي هؤلاء وأنا أكلت وعافر منفية ومطرودة، وهؤلاء من رباهم، هأنذا كنت متروكة وحدي، هؤلاء أين كانوا...»

هكذا قال السيد الرب ها إني أرفع إلى الأمم يدي، وإلى الشعوب أقيم رأيتي، فيأتون بأولادك في الأحضان وبناتك على الاكتاف يحملن، ويكون الملوك حاضنك وسيداتهم مرضعاتك، بالوجوه إلى الأرض يسجدون لك، ويلحسون غبار رجلك فتعلمين أني أنا الرب الذي لا يخزي منتظروه...

هل تُسلبُ من الجبار غنيمة وهل يُفلتُ سبي المنصور، فإنه هكذا قال الرب حتى سبي الجبار يسلب وغنيمة العاتى تفلت، وأنا أخاصم مخاصمك وأخلص أولادك، وأطعم ظالميك لحم أنفسهم، ويسكرون بدمهم كما من سلاف فيعلم كل بشر أنى أنا الرب مخلصك وفاديك عزيز يعقوب» (إشعيا ٤٩/١٤ - ٢٥)

وتأتى البشرى من قبل إله إسرائيل لصهيون المخربة المدمرة:

«إن الرب قد عزى صهيون، عزى كل خربها، ويجعل بريتها كعدن وباديتها كجنة الرب، الفرح والابتهاج يوجدان فيها، الحمد وصوت الترنم» (إشعيا ٥١/٣)

لكننا منذ هذه البشرى ونحن ننتظر.

فلم يحدث ما وعد به الرب قديماً ولا حديثاً، إذ توالى الخراب والتدمير على أيدي الرومان والصلبيين، ولم نجد فيها حتى اليوم الفرح والابتهاج الموعودين فى العبارة السابقة، بل سفك دماء، ونسف منازل، وقتل أبرياء.

ويصور لنا إله إسرائيل حال أورشليم وموقف أبنائها المتخاذل، معلناً انتهاء عصر الدمار والخراب والهوان (إشعيا ١٧/٥١ - ٢٣)، ومع هذا يشهد التاريخ منذ إشعيا وحتى بداية القرن العشرين، استمراراً لما وعد الرب بإنهائه.

بل إن الرب يعلن انتهاء عصر الانتهاك لأورشليم من قبل النجسين والغلف (إشعيا ١/٥٢)، ومع هذا يستمر هؤلاء الغلف مسيطرين حتى الفتح الإسلامى للمدينة فى القرن السابع الميلادى، أى ما يزيد على ألف

سنة من الإعلان الإلهي عن تطهير المدينة.

ويبدو أن الرب قد هاجر من أورشليم بعد خرابها على أيدي بابل، وإن كنا لا نعلم محل إقامته خلال فترة النفي، لكنه سيعود إلى صهيون بعد أن فداها بجبروته وقوته:

«ما أجمل على الجبال قدمي المبشر المخبر بالسلام، المبشر بالخير المخبر بالخلاص، القائل لصهيون قد ملك إلهك، صوت مراقبك، يرفعون صوته، يترغمون معاً؛ لأنهم يبصرون عيناً لعين عند رجوع الرب. إلى صهيون، أشيدي، ترغمي معاً يا خرب أورشليم؛ لأن الرب قد عزى شعبه، فدى أورشليم، قد شمر الرب عند ذراع قدسه أمام عيون كل الأمم، فترى كل أطراف الأرض خلاص إلها» (إشعياء ٥٢/٧ - ١٠)

وفي خواتيم سفر إشعياء تزداد حرارة الحب الإلهي لأورشليم، وتقوى العلاقة بينها وبين الرب، ويصور الإصحاح الثاني والستون من هذا السفر مكانة صهيون وأورشليم العالية عند الرب على النحو التالي:

«من أجل صهيون لا أسكتُ ومن أجل أورشليم لا أهدأ حتى يخرج برها كضياء وخلصها كمصباح يتقد، فترى الأمم برك وكل الملوك مجدك وتسمين باسم جديد يعينه فم الرب، وتكونين إكليل جمال بيد الرب وتاجاً ملكياً بكف إلهك، لا يُقال بعد لك مهجورة ولا يقال بعد لأرضك موحشة، بل تدعين حفصية وأرضك تدعى بعولة؛ لأن الرب يُسرُّ بك وأرضك تصير ذات بعل؛ لأنه كما يتزوج الشاب عذراء يتزوجك بنوك، وكفرح العريس بالعروس يفرح بك إلهك...»

على أسوارك يا أورشليم أقمتُ حراساً لا يسكتون كل النهار وكل

الليل على الدوام، يا ذاكرى الرب لا تسكتوا ولا تدعوه يسكت حتى يثبت ويجعل أورشليم تسبيحة في الأرض، حلف الرب بيمينه وبذراع عزته قائلاً إنى لا أدفع بعد قمحك مأكلاً لأعدائك، ولا يشرب بنو الغرباء خمرك التى تعبت فيها، بل يأكله الذين جنوه ويسبحون الرب ويشربيه جامعه في ديار قدسى» (إشعيا ١/٦٢ - ٩).

ومن الفقرات السابقة يتضح لنا أن الرب مصر على عمل المستحيل من أجل إعلاء شأن أورشليم بين الشعوب، مؤكداً على علاقة «التزاوج» بين الرب وأورشليم، وهى علاقة تفيد الانصهار والاندماج بين الزوجين، بعد أن سبق تشبيه العلاقة كعلاقة الأم برضيعها، وكلها - على أى حال - تفيد الارتباط الوثيق بين الجانبين.

وتنتهى إصحاحات إشعيا بكثير من الوعود الإلهية لأورشليم، وهى كلها ذات طابع «يوتوبى» لم يحدث فى تاريخ أورشليم حتى ساعة كتابة هذه السطور، ولا نعلم إن كانت واقعة أم لا.

وسواء أكانت هذه الوعود لأورشليم كمدينة، أم لليهود الساكنين فيها، فإنها لم تتحقق.

وبعد هذه الصفحات من الحب الإلهى لأورشليم، والغزل الربانى فيها، تطالعنا أسفار العهد القديم بموقف، بل بمواقف مناقضة تماماً لما سبق، وكان أورشليم لم تعد مدينة الله، وسكانها لم يعودوا «شعب الله».

والجانب السلبي فى موقف إله إسرائيل من المدينة لم يكن مفاجئاً، بل أعلن الرب عنه صراحة فى فترة سابقة من تاريخ القوم.

فبعد إصلاحات الملك يوشيا الثورية التي أعاد فيها الأمور إلى نصابها، فأصلح العقائد، وطهر الأرض من رجاسات اليهود، نَجِدَ الرب غير راضٍ بما تم، ويتخذ قراره ضد أورشليم دون مراعاة لاختيارها، ولا لبيته الذي بها:

«ولكن الرب لم يرجع عن حمو غضبه العظيم؛ لأن غضبه حمى على يهوذا من أجل جميع الإغاظات التي أغاظه إياها منسى، فقال الرب: إني أنزع يهوذا أيضاً من أمامي كما نزع إسرائيل، وأرفض هذه المدينة التي اخترتها أورشليم والبيت الذي قلت يكون اسمى فيه». (الملوك الثاني ٢٣/٢٧ - ٢٨).

وفيما يلي نسوق بعض صور «غضب الرب» ورفضه للمدينة وللبيت، إنها ثورة الرب ضد أورشليم والبيت والشعب، يقول النبي إرميا:

«آه يا سيد الرب، حقاً إنك خداعاً خادعتَ هذا الشعب وأورشليم قائلاً: يكون لكم سلام، وقد بلغ السيل النفس، في ذلك الزمان يقال لهذا الشعب ولأورشليم ريح لافحة من الهضاب، في البرية نحو بنت شعبي، لا للتنقية ولا للتنقية، ريح أشد، تأتي لى من هذه، الآن أنا أيضاً أحاكمهم... اغسلى من الشر قلبك يا أورشليم لكي تخلصى. إلى متى تبست وسطك أفكارك الباطلة... انظروا. اسمعوا على أورشليم، المحاصرون آتون من أرض بعيدة، فيطلقون على مدن يهوذا صوته، كحارسى حقل صاروا عليها حواليتها لأنها تمردت على، يقول الرب: طريقك وأعمالك صنعت هذه لك، هذا شرك. فإنه مر، فإنه قد بلغ قلبك» (إرميا ٤/١٠ - ١٨).

بداية، نود أن نشير إلى أن النبي إرميا كان يستوطن «عناثوت» وهي «عناثا» الحديثة، وتقع على مقربة ثلاثة أميال تقريباً إلى الشمال الشرقي من أورشليم، وكانت نبوته في السنة الثالثة عشرة من ملك يوشيا بن آمون ملك يهوذا، واستمرت كذلك في أيام يهوياقيم بن يوشيا - ملك يهوذا - وحتى السنة الحادية عشرة لصدقيّا بن يوشيا - ملك يهوذا - كما عاصرت سبي أورشليم، لقد استمرت خدمة إرميا نحو خمسين عاماً، ومن ثم فهي خدمة نبوية «ثرية»، لتعدد ملوك بني إسرائيل فيها، ولوقوع حدث السبي البابلي الجلل، الذي كان بمثابة نقطة تحول في تاريخ هؤلاء القوم.

والفقرات السابقة من سفر إرميا تشير إلى عدة حقائق على النحو التالي:

- ١ - خداع الرب للشعب ولأورشليم.
 - ٢ - التهديد بالخطر القادم على المدينة وأهلها (السبي البابلي وتدمير أورشليم).
 - ٣ - انغماس أورشليم - وأهلها - في الأفكار الباطلة.
 - ٤ - دعوة الرب للمدينة وسكانها من اليهود بالتطهر من الآثام.
 - ٥ - تمرد أورشليم على الرب.
 - ٦ - الخطر القادم إنما هو نتيجة أفعال أورشليم ومن فيها.
 - ٧ - تمكن الخطايا والآثام من النفوس الأورشليمية.
- نلاحظ أن الخطاب الرباني قد وحد بين اسم المدينة وسكانها، فقد يخاطب الرب «أورشليم» ويعني أهلها، ومن هنا جاءت تحذيرات

وتهديدات الرب المتوالية لأورشليم.

ويتضح من «لهجة» إله إسرائيل في تعامله مع المدينة وأهلها، أن الرب «غاضب» إلى حد كبير من أفعالهما، وأنه سيوقع بهما العقاب القاسي، دون مراعاة «لقداسة» المدينة أو «لقداسة» الشعب، واختيارهما «كمدينة الله» و«كشعب الله».

لقد استحققت أورشليم غضب الرب وعقابه لها بالتخريب والتدمير لانحراف أهلها جميعاً، دون استثناء، هكذا يقول الرب:

«طوفوا في شوارع أورشليم وانظروا واعرفوا وفتشوا في ساحاتها، هل تجدون إنساناً أو يوجد عامل بالعدل طالب الحق فأصفي عنها، وإن قالوا: «حي هو الرب فإنهم يحلفون بالكذب، يارب أليست عينك على الحق، ضربتهم فلم يتوجعوا، أفنيتهم وأبوا قبول التأديب، صلبوا وجوههم أكثر من الصخر، أبوا الرجوع» (إرميا ١/٥ - ٣).

تلك صورة أورشليم وأهلها، ليس فيها إنسان واحد عامل بالعدل، أهلها كذبة، يعاندون الرب ويصرون على الكفر.

وتأتي الإنذارات والتهديدات للمدينة، وتتحول «مدينة الله» إلى شيء بغض:

«الجميلة اللطيفة ابنة صهيون (أورشليم) أهلكها» (إرميا ٢/٦).

«لأنه هكذا قال رب الجنود: اقطعوا أشجاراً، أقيموا حول أورشليم مترسة هي المدينة المعاقبة، كلها ظلم في وسطها... تأدبى يا أورشليم لثلاث تحفوك نفسى، لثلاث أجعلك خراباً، أرضاً غير مسكونة»

(إرميا ٦/٩ - ٨).

والاختيار الإلهي لأورشليم مشروط باتباع سبل الرب والسير في طريقه، فإن لم يتحقق هذا، فلتهلك أورشليم، وليهلك من فيها:

«أما ترى ماذا يفعلون في مدن يهوذا وفي شوارع أورشليم، الأبناء يلتقطون حطبًا والآباء يوقدون النار، والنساء يعجن العجين ليصنعن كعكًا للملكة السماوات ولسكب سكائب لآلهة أخرى لكي يغيطوني، أفليأى يغيطون، يقول الرب، أليس أنفسهم لأجل خزي وجوههم، لذلك قال السيد الرب، ها غضبي وغيطي ينسكبان على هذا الموضع على الناس وعلى البهائم وعلى شجر الحقل، وعلى ثمر الأرض فيتقدان ولا ينطفئان» (إرميا ١٧/٧ - ٢٠).

فمدينة الله إذن تعج بمظاهر الشرك، إن أهلها يوقدون ويقدمون القرابين للآلهة الأخرى، إنهم يغيطون الرب، ولقد نفذ صبر الرب فاتخذ قراره بحلول غضبه على المدينة ومن فيها متمثلاً في الإحراق الدائم: «فيتقدان ولا ينطفئان».

غريب هذا الموقف الرباني تجاه مدينته وشعبه المختارين، وبخاصة عندما نقارن موقفه الإيجابي الذي سبقت الإشارة إليه.

ولكن ليس بغريب على من يربط بين النصوص ليعلم من خلال هذا الربط أن هذا الاختيار - للمدينة وللشعب - ليس على إطلاقه كما يبدو من ظاهر بعض نصوص العهد القديم، ولكنه اختيار مشروط، فإذا أخلت المدينة وأهلها بشرط من هذه الشروط، فليس ثمة اختيار.

ونحن في هذا المقام لا نحصى «تجاوزات» أورشليم وأهلها، وخرقهما الدائم لشروط الاختيار، وإنما نختار فقط بعض النماذج والشواهد.

يقول إله إسرائيل:

«هأنذا أملاً كل سكان هذه الأرض والملوك الجالسين لداود على كرسية الكهنة والأنبياء وكل سكان أورشليم سكرًا، وأحطمهم الواحد على أخيه، الآباء والأبناء معًا، يقول الرب: لا أشفق ولا أترأف ولا أرحم من إهلاكهم» (إرميا ١٣/١٣ - ١٤).

هكذا يكون مصير أورشليم وملوكها وكهنتها وأنبيائها وسكانها، لقد فقدت - إذن - كل مقومات الاختيار المزعوم.

وتأتى «براءة» من الرب من أورشليم لكثرة آثامها وأرجاسها:

«يقول الرب: لأنك نسيتنى واتكلت على الكذب، فانا أيضًا أرفع ذيلك على وجهك فيرى خزيك، فسحقك وصهيلك ورذالة زناك على الأكمام، فى الحقل قد رأيت مكرهاتك، ويل لك يا أورشليم، لا تطهرين، حتى متى بعد» (إرميا ١٣/٢٥ - ٢٧).

أى كراهية ربانية، وغضب إلهى بعد تلك اللعنات والويلات لمدينة الله وأهلها!؟

وغضب الرب وكراهيته ليست سمات وصفات عارضة فى موقف إله إسرائيل، فهذا الموقف السلبي هو موقف أبدى، هكذا يخبرنا رب إسرائيل:

«لأنكم قد أضرمتم نارًا بغضبي تنقد إلى الأبد» (إرميا ١٧/٤).

فغضب الرب وناره يمثلان موقفًا إلهيًا أبدى غير مرتبط بظرف وحين. وتتوالى إنذارات الرب لأورشليم وسكانها، إنذارات تجعل الولدان شيئًا

(إرميا ١٨/١١ - ١٢، ١٩/٧ - ١٣، ٢٣/١٠، ٢٦/١٨...).

ولم تعد أورشليم مصدراً للنور الرباني، والشرعية الإلهية، بل «من» عند أنبياء أورشليم خرج نفاق في كل الأرض» (إرميا ٢٣/١٥).

«لقد أخطأت أورشليم خطية، من أجل ذلك صارت رجسة، كل مكرميها يحتقرونها؛ لأنهم رأوا عورتها وهي أيضاً تتنهد وترجع إلى الوراء، نجاستها في أذيالها، لم تذكر آخرتها وقد انحطت انحطاطاً عجيبياً» (مراثي إرميا ٨/١ - ٩).

«صارت أورشليم نجسة» (مراثي إرميا ١٧/١).

إن «مراثي إرميا» تسجل لنا صوراً متعددة من انتقام الرب - إله إسرائيل - من صهيون وأورشليم، لم تعد بعد مدينته، ليست ابنته التي ترتبط بأُمها التي ولدتها، وليست - كذلك - الزوجة التي تلتصق بزوجها، القرائن والأدلة والنصوص والشواهد، كلها توحى «بالسقوط»، السقوط الأبدي على نحو ما ورد في النصوص التي سقناها من قبل.

وبعد وقوع النفي لسكان أورشليم، والتدمير للمدينة، وبقاء من بقى من بنى إسرائيل فيها، نجد الرب يهجر أورشليم، ويختار أن يكون مع المنفيين لا مع الباقين، وربما كان قرار «يهوه» بذلك يعني تخليه عن صهيون، وأن الخراب آت لا ريب فيه إن عاجلاً أو آجلاً^(١).

ومن يتطلع في أحكام الرب التي أصدرها ضد أورشليم وأهلها - كما دونت في سفر حزقيال (٥/٥ - ١٧) - لا يجد ذرة من حب إلهي

(١) كارين أرمسترونج، مرجع سبق ذكره، ص: ١٥٣.

للمدينة وأهلها، الأمر الذي يثير العجب والدهشة من إصرار الإسرائيليين على الاعتقاد بأن أورشليم هي «مدينة الله» التي اختارها ليسكن فيها، وأن اليهود هم «شعب الله» الذي اختاره والتصق به وفضله على سائر الأمم والشعوب:

«هكذا قال السيد الرب، هذه أورشليم في وسط الشعوب قد أقمتها وحواليها الأراضى، فخالفت أحكامى بأمر من الأمم وفرائضى بأمر من الأراضى التي حواليها؛ لأن أحكامى رفضوها وفرائضى لم يسلكوا فيها، لأجل ذلك هكذا قال السيد الرب، من أجل أنكم ضججتم أكثر من الأمم التي حواليكم ولم تسلكوا في فرائضى ولم تعملوا حسب أحكامى ولا عملتم حسب أحكام الأمم التي حواليكم، لذلك هكذا قال السيد الرب، ها إني أنا أيضاً عليك وسأجرى في وسطك أحكاماً أمام عيون الأمم، وأفعل بك ما لم أفعل وما لن أفعل مثله بعد بسبب كل أرجاسك، لأجل ذلك تأكل الآباء الأبناء في وسطك والأبناء يأكلون آباءهم وأجرى فيك أحكاماً وأذرى بقيتك كلها في كل ربح، من أجل ذلك حتى أنا يقول السيد الرب من أجل أنك قد نجست مقدسى بكل مكرهاتك، وبكل أرجاسك فانا أيضاً أجز ولا تشفق عيني وأنا أيضاً لا أعفو، ثلث يموت بالوباء والجوع يفنون في وسطك، وثلث يسقط بالسيف من حولك وثلث أذريه في كل ربح وأستل سيفاً وراءهم، وإذا تم غضبي وأحللت سخطى عليهم، وتشفيت يعلمون أنى أنا الرب تكلمت في غيرتى إذا أقمت سخطى فيهم، وأجعلك خراباً وعاراً بين الأمم التي حواليك أمام عيني كل عابر، فتكونين عاراً ولعنة وتأديباً

ودهبًا للأمم التي حوالياك إذا أجريت فيك أحكامًا بغضب وبسخط
وبتوبيخات حامية، أنا الرب تكلمت، إذا أرسلت عليهم سهام الجوع
الشريرة التي تكون للخراب التي أرسلها لخرابكم وأزيد الجوع عليكم
وأكسر لكم قوام الخبز، وإذا أرسلت عليكم الجوع والوحوش الرديئة
فتتكلل ويبر فيك الوبأ والدم وأجلب عليك سيفًا، أنا الرب تكلمت»
(حزقيال ٥/٥-١٧).

وفى إحصاء ليس له مثيل فى أسفار العهد القديم، يسجل لنا
الإصحاح السادس عشر من سفر حزقيال موضوعين رئيسين:
الأول - هو نعم وأفضال الرب على أورشليم.

الثانى - انحرافات أورشليم وضلالاتها.

إنها «صحيفة سوابق» لمدينة الله المختارة المقدسة، إنها محاكمة من
الرب للمدينة العاصية، تنتهى بنفى سكانها وتدمير أسوارها وبيوتها،
ويبدو من آخر الإصحاح أن الرب ما زال على أمل فى تقويم مدينته
وأهلها، فراح يذكرها بالعهد، ثم يختتم الإصحاح بتلويح منه بالمغفرة،
الامر الذى يشكل أمامنا نوعًا من التناقض فى الموقف اليهودى الإلهى تجاه
المدينة.

بعد كل التهديدات بالويل والثبور.

وبعد كل هذا الإحصاء الذى استمر على مدى سفرى عزرا وحزقيال
لرجاسات وانحرافات أورشليم وأهلها.

وبعد أن قطع الرب - من قبل - حكمًا يقضي بخراب أورشليم إلى الأبد.

بعد كل هذا نجد طريق الغفران.

فهل تنتمي تلك الفقرة الأخيرة من هذا الإصحاح، إلى نفس الكاتب الذي سجل جميع جرائم المدينة وأهلها في «الصحيفة الجنائية» التي نسوقها الآن؟:

«وكانت إلى كلمة الرب قائلة: يا ابن آدم عرف أورشليم برجاساتها، وقل: هكذا قال السيد الرب لأورشليم، مخرجك ومولدك من أرض كنعان، أبوك أموري وأمك حثية، أما ميلادك يوم ولدت فلم تقطع سرتك ولم تغسلي بالماء للتنظيف، ولم تملحي تمليحًا ولم تغمطي تغميطًا، لم تشفق عليك عين لتصنع لك واحدة من هذه لتترك لك، بل طرحت على وجه الحقل بكراهة نفسك يوم ولدت، فمررت بك ورأيتك مدوسة بدمك فقلت لك بدمك عيشي، قلت لك بدمك عيشي، جعلتك ربوة كنبات الحقل فربوت وكبرت وبلغت زينة الأزيان، نهدي ثدياك ونبت شعرك وقد كنت عريانة وعارية، فمررت بك ورأيتك وإذا زمناك زمن الحب، فبسطت ذيلي عليك وسترت عورتك وحلفت لك ودخلت معك في عهد يقول السيد الرب فصرت لي، فحملتك بالماء وغسلت عنك دماءك ومسحتك بالزيت، وألبستك مطرزة ونعلتك بالثخن وأزرتك بالكثان وكسوتك بزًا، وحليتك بالخلي فوضعت أسورة في يديك وطوقًا في عنقك، ووضعت خزامة في أنفك وأقراطًا في أذنيك وتاج جمال على رأسك، فتحليت بالذهب والفضة ولبناسك الكثان والبز والمطرز، وأكلت السميد والعسل

والزيت وجملت جدًا جدًا فصلحت لمملكة، وخرج لك اسم في الأمم لجمالِكَ؛ لأنه كان كاملاً بيهاى الذى جعلته عليك يقول السيد الرب:

فاتكلت على جمالِكَ وزنيت على اسمِكَ وسكبت زناكَ على كل عابر فكان له، وأخذت من ثيابِكَ وصنعت لنفسِكَ مرتفعات موشاة وزنيت عليها، أمرٌ لم يأت ولم يكن، وأخذت أمتعة زيتكَ من ذهبى ومن فضتى التى أعطيتكَ وصنعت لنفسِكَ صور ذكور وزنيت بها، وأخذت ثيابِكَ المطرزة وغطيتها بها ووضعت أمامها زيتى وبخورى، وخبزى الذى أعطيتكَ السميز والزيت والعسل الذى أطعمتكَ وضعتها أمامها رائحة سرور وهكذا كان يقول السيد الرب.

أخذت بنيك وبناتِكَ الذين ولدتهم لى وذبحتهم لها طعاماً، أهو قليل من زناكَ، أنك ذبحت بنى وجعلتهم يجوزون فى النار لها، وفى كل رجاساتِكَ وزناكَ لم تذكرى أيام صباك إذ كنت عريانة وعارية وكنت مدوسة بدمك، وكان بعد كل شرك، ويلٌ لك يقول السيد الرب، أنك بنيت لنفسِكَ قبة وصنعت لنفسِكَ مرتفعة فى كل شارع، فى رأس كل طريق بنيت مرتفعتك ورجست جمالِكَ وفرجت رجلك لكل عابر وأكثرت زناكَ، وزنيت مع جيرانِكَ بنى مصر الغلاظ اللحم وزدت فى زناكَ لإغاظتى.

فهاًذا قد مددت يدي عليك ومنعت عنكَ فريضتك وأسلمتك لمرام مبغضاتِكَ بنات الفلسطينيين اللواتى يحجلن من طريقك الرذيلة، وزنيت مع بنى آشور إذ كنت لم تشبعى فزنيت بهم ولم تشبعى أيضاً، وكثرت زناكَ فى أرض كنعان إلى أرض الكلدانيين وبهذا أيضاً لم تشبعى، ما

أمراض قلبك يقول السيد الرب إذ فعلت كل هذا فعل امرأة زانية سليطة
بينائك قبتك في رأس كل طريق وصنعك مرتفعتك في كل شارع، ولم
تكوني كزانية بل محتقرة الأجرة، أيتها الزوجة الفاسقة تأخذ أجنيبين
مكان زوجها، لكل الزواني يعطون هدية، أما أنت فقد أعطيت كل
محببك هداياك ورشيتهم ليأتوك من كل جانب للزنا بك، وصار فيك
عكس عادة النساء في زمانك إذ لم يزن وراءك، بل أنت تعطين أجرة ولا
أجرة تعطى لك فصرت بالعكس.

فلذلك يا زانية اسمعي كلام الرب، هكذا قال السيد الرب، من أجل
أنه قد أنفق نحاسك وانكشفت عورتك بزناك بمحببك وبكل أصنام
رجاساتك ولدماء بنيك الذين بذلتهم لها، لذلك هأنذا أجمع جميع
محببك الذين لذت لهم وكل الذين أحببتهم مع كل الذين أبغضتهم
فأجمعهم عليك من حولك وأكشف عورتك لهم لينظروا كل عورتك،
وأحكم عليك أحكام الفاسقات السافكات الدم، وأجعلك دم السخط
والغيرة، وأسلمك ليدهم فيهدمون قبتك ويهدمون مرتفعاتك وينزعون
عنك ثيابك ويأخذون أدوات زيتك ويتركوك عريانة وعارية، ويصعدون
عليك جماعة ويرجمونك بالحجارة ويقطعونك بسيوفهم، ويحرقون
بيوتك بالنار ويجرون عليك أحكاماً قدام عيون نساء كثيرة، وأكفك عن
الزنا أيضاً لا تعطين أجرة بعد، وأحل غضبي بك فتنصرف غيرتي عنك
فأسكن ولا أغضب بعد، من أجل أنك لم تذكرى أيام صباك بك
أسخطني في كل هذه فهأنذا أيضاً أجلب طريقك على رأسك يقول السيد
الرب فلا تفعلين هذه الرذيلة فوق رجاساتك كلها.

هو ذا كل ضارب مثل يضرب مثلاً عليك قائلاً مثل الأم ببتها، ابنة أمك أنت الكارهة زوجها وبنيتها، وأنت أخت أخواتك اللواتي كرهن أزواجهن وأبناءهن، أمكن حثية وأبوكن أموري، وأختك الكبرى السامرة هي وبناتها الساكنة عن شمالك، وأختك الصغرى الساكنة عن يمينك هي سدوم وبناتها، ولا فنى طريقهن سلكت ولا مثل رجاساتهن فعلت كأن ذلك قليل فقط ففسدت أكثر منهن فى كل طرقك، حتى أنا يقول السيد الرب: إن سدوم أختك لم تفعل هي ولا بناتها كما فعلت أنت وبناتك، هذا كان إثم أختك سدوم الكبرياء والشبع من الخبز وسلام الاطمئنان كان لها ولبناتها ولم تشدد يد الفقير والمسكين، وتكبرن وعملن الرجس أمامي فنزعتن كما رأيت، ولم تخطي السامرة نصف خطاياك، بل زدت رجاساتك أكثر منهن وبررت أخواتك بكل رجاساتك التي فعلت، فاحملى أيضاً خزيك أنت القاضية على أخواتك، بخطاياك التي بها رجست أكثر منهن هن أبر منك، فاخجلى أنت أيضاً واحملى عارك بتبريرك أخواتك، وأرجع سبيهن سبي سدوم وبناتها وسبي السامرة وبناتها وسبي مسبيك فى وسطها لكى تحمل عارك وتخزي من كل ما فعلت بتعزيتك إياهن، وأخواتك سدوم وبناتها يرجعن إلى حالتهن القديمة والسامرة وبناتها يرجعن إلى حالتهن القديمة وأنت وبناتك ترجعن إلى حالتهن القديمة، وأختك سدوم لم تكن تذكر فى فمك يوم كبرياتك قبل ما انكشف شرك كما فى زمان تعبير بنات آرام وكل من حولها بنات الفلسطينيين اللواتي يحتقرنك من كل جهة، رذيلتك ورجاساتك أنت تحملينها يقول الرب:

لأنه هكذا قال السيد الرب: إني أفعل بك كما فعلت إذا ازدريت بالقسم لنكث العهد، ولكني أذكر عهدي معك في أيام صباك وأقيم لك عهداً أبدياً، فتذكرين طرقك وتخجلين إذ تقبلين أخواتك الكبير والصغير وأجعلهن لك بنات ولكن لا بمعهدك، وأنا أقيم عهدي معك فتعلمين أني أنا الرب، لكي تتذكرى فتخزي ولا تفتحي فاك بعد بسبب خزيك حين أغفر لك كل ما فعلت يقول السيد الرب» (حزقيال ١٦).

ويعود النبي حزقيال ليؤكد على رجاسات أورشليم وموبقاتها، وحزقيال لا يتكلم إلا بلسان الرب إذ يقول:

«وكان إلى كلام الرب قائلاً: وأنت يا ابن آدم هل تدين هل تدين مدينة الدماء، فعرّفها كل رجاساتها، وقل: هكذا قال السيد الرب: أيتها المدينة السافكة الدم في وسطها ليأتى وقتها الصانعة أصناماً لنفسها لتتنجس بها، قد أثمت بدمك الذي سفكت، ونجست نفسك بأصنامك التي عملت، وقربت أيامك، وبلغت سنك فلذلك جعلتك عاراً للأمم وسخرة لجميع الأراضى، القرية إليك والبعيدة عنك يسخرون منك يا نجسة الاسم يا كثيرة الشغب، هو ذا رؤساء إسرائيل كل واحد حسب استطاعته كانوا فيك لأجل سفك الدم، فيك أهانوا أباً وأماً، في وسطك عاملوا الغريب، بالظلم، فيك اضطهدوا اليتيم والأرملة، ازدرت أقداسي ونجست سبوتي، كان فيك أناس وشاة لسفك الدم وفيك أكلوا على الجبال، في وسطك عملوا رذيلة، فيك كشف الإنسان عورة أبيه، فيك أذلوا المتنجسة بطمئنها، إنسان فعل الرجس بامرأة قريبة، إنسان نجس كتنه برذيلة، إنسان أذل فيك أخته بنت أبيه، فيك أخذوا الرشوة لسفك الدم،

أخذت الربا والمراوحة وسلبت أقرباءك بالظلم ونسيتنى يقول السيد الرب»
(حزقيال ١/٢٢ - ١٢).

ها هي مرة أخرى يذكّر إله إسرائيل كل قارئ لكلماته بما فعلته
أورشليم، وما أصدره الرب بشأنها.

أورشليم قد أصبحت «المدينة السافكة الدم».

أورشليم «نجسة الاسم».

وأورشليم «كثيرة الشغب».

وأورشليم قد أصبحت كذلك «عاراً للأمم وسخرة لجميع الأراضى».

فهل يمكن لنا بعد كل تلك الصفات أن نزعّم بقداسة المدينة، وقداسة
أهلها؟!

ومع أن سفر حزقيال قد استمر في إحصاء رجاسات أورشليم، وتهديد
الرب لها بالانتقام منها (١١/٢٣ - ٤٩)، إلا أن تحولاً مفاجئاً قد طرأ
على موقف الرب تجاه أورشليم، وعدنا مرة أخرى إلى «روح إيجابية»
يهوية، حركتها مواقف الأعداء من المدينة: «من أجل أن صور قالت على
أورشليم هه قد انكسرت مصاريع الشعوب» (حزقيال ٢/٢٦).

مجرد موقف عدائي من قبل مملكة مجاورة تجاه أورشليم، جعل إله
إسرائيل يقرر الانتقام من الأعداء، حباً لأورشليم وعشقاً لها.

هل هي روح الغيرة التي دبت في الرب فجأة فلم يقبل تهديد أو
سخرية «صور» من أورشليم؟

لكنه قبل تهديد، بل تخريب المدينة على أيدي البابليين ولم يغر على مدينته، كما أنه هو الذى جعل أورشليم محل سخرية واستهزاء الأمم، على نحو ما جاء فى النصوص التى سقناها حتى الآن. فى الحقيقة، لا نجد تبريراً معقولاً لهذا التحول، ويبقى لغزاً محيراً من ألغاز المدينة.

ومع هذا، نجد الرب ينتقم لعصيانه، فيعود إلى ما كان عليه قائلاً: «هكذا قال الرب: من أجل ذنوب يهوذا الثلاثة والأربعة، لا أرجع عنه؛ لأنهم رفضوا ناموس الله ولم يحفظوا فرائضه، وأضلّتهم أكاذيبهم التى سار آباؤهم وراءها، فأرسل ناراً على يهوذا فتأكل قصور أورشليم» (عاموس ٢/٤ - ٥).

وإذا كان هذا هو ديدن إله إسرائيل تجاه أورشليم: كلما رفضت الناموس ولم تحفظ شرائع الرب، استحققت الحرق والخراب، فهل قبلت أورشليم هذا الناموس وحفظت شرائع الرب فى العصر الحاضر؟ أم لا تنطبق أحكام الرب على الحاضر من التاريخ وتقتصر على الماضى منه؟ إن الرب يتوعد دائماً أورشليم وأهلها إذا ما خالفوا أوامره، لم يكن ذلك الوعيد قاصراً على زمن دون آخر، أو جاء به نبي دون آخر، بل هى قاعدة عامة؛ فقد جاء فى سفر صفنيا:

«ويل للمتمردة المنجسة، المدينة الجائرة (أورشليم)، لم تسمع الصوت، لم تقبل التآديب، لم تتكل على الرب، لم تتقرب إلى إلهها، رؤساؤها فى وسطها أسود زائرة، قضاتها ذئاب مساء لا يبقون شيئاً إلى الصباح،

أنبيأؤها متفاخرون أهل غدرات، كهنتها نجسوا القدس، خالفوا الشريعة».

(١/٣ - ٤).

ثم عودة أخرى إلى عالم المتناقضات، يعود الفرج للمدينة السافكة الدم، نجسة الاسم، فالرب يخلصها، ويدخل السرور إلى قلبها، ويعيد المنفيين، ويفعل الأعاجيب من أجل أورشليم.

(صفنيا ٣/١٤ - ٢٠).

ويسجل لنا سفر زكريا مزيداً من التناقضات الإلهية في مواقف الرب يهوه تجاه أورشليم.

فهو لا يرحم المدينة (١٢/١).

ويغار على أورشليم وصهيون «غيرة عظيمة» (١٤/١).

ثم . . ثم يعود مرة أخرى ليرحمها ويختارها:

«هكذا قال الرب: قد رجعت إلى أورشليم بالمراحم، فبني بيتي فيها، يقول رب الجنود، ويمد المطمار على أورشليم، ناد أيضاً وقل: هكذا قال رب الجنود: إن مدني تفيض بعد خيراً، والرب يعزي صهيون بعد، ويختار بعد أورشليم» (١٦/١ - ١٧).

فأين نار الرب التي اتقدت غضباً على أورشليم إلى الأبد.

(إرميا ١٧/٤)!

وأين رفض الرب لأورشليم ونزع اسمه منها

(الملوك الثاني ٢٣/٢٨)!

هل نسي الرب رفضه وتهديده ووعيده وتخريبه لأورشليم؟
أم أن هناك مَنْ «تدخل» عن عمد ليجعل البغضاء حبًا، والرفض
قبولًا، والهلاك والخراب بعثًا ونهضة؟!
أعترف بعجزى عن التوفيق بين هذه المتناقضات، لكنى أصر على
مطلبى ممن يؤمنون بهذه النصوص: فأنا، أريد حلاً!!

* * *

الفصل الثالث
الهيكـل
حقائق وأساطير

بدأت فكرة بناء بيت (هيكل)^(١) للرب في ذهن داود بعد أن استقر الملك داود في أورشليم وثبتت دعائم ملكه، واستراح من الحروب، ونقل تابوت عهد الرب من بيت عوبيد أدوم الجثى، حيث بقي فيه ثلاثة أشهر في أعقاب استرداده من الفلسطينيين (صموئيل الثاني ٦/ ١٠ - ١١) إلى مدينة داود - صهيون - على نحو ما تذكر نصوص الإصحاح السادس من سفر صموئيل الثاني.

إذن، بدأ داود يفكر في «محل إقامة» دائم للرب، كما أصبح له هو محل إقامة دائم في صهيون وأورشليم، وكان الحوار التالي بين داود والنبى ناثان بشأن تلك الفكرة:

«وكان لما سكن الملك في بيته وأراحه الرب من كل الجهات من جميع أعدائه أن الملك قال لنathan النبي انظر. إني ساكن في بيت من أرز وتابوت الله ساكن داخل الشقق. فقال Nathan للملك: اذهب افعل كل ما يقلبك؛ لأن الرب معك. وفي تلك الليلة كان كلام الرب إلى Nathan قائلاً: اذهب وقل لعبدي داود هكذا قال الرب. أأنت تبنى لى بيتاً لسكنائى. لأنى لم أسكن في بيت منذ يوم أصعدت بنى إسرائيل من مصر إلى هذا اليوم بل كنت أسير في خيمة وفي مسكن. فى كل ما سرت مع جميع بنى إسرائيل هل تكلمت بكلمة إلى أحد قضاة إسرائيل الذين أمرتهم أن يعرفوا

(١) كلمة هيكل التى يستخدمها اليهود علماً لبيت الرب ليست كلمة عبرية، وإنما هذا الاسم مأخوذ من الكنعانيين، ويرجع الاصطلاح إلى أصل سورى بابلى، انظر: طه باقر، مقدمة فى تاريخ الحضارات القديمة، ج٢، ص: ٢٨٩.

شعبي إسرائيل قائلاً: لماذا لم تبسوا لى بيتاً من الأرز، والآن فهكذا تقول لعبدى داود، هكذا قال رب الجنود أنا أخذتك من المريض من وراء الغنم لتكون رئيساً على شعبي إسرائيل، وكنت معك حيثما توجهت وقرضت جميع أعدائك من أمامك وعملت لك اسماً عظيماً كاسم العظماء الذين فى الأرض، وعينت مكاناً لشعبي إسرائيل وغرسته فسكن فى مكانه ولا يضطرب بعد ولا يعود بنو الإثم يذللونه كما فى الأول، ومنذ يوم أقمت فيه قضاة على شعبي إسرائيل، وقد أرحتك من جميع أعدائك، والرب يخبرك أن الرب يصنع لك بيتاً، متى كملت أيامك واضطجعت مع آبائك أقم بعدك نسلك الذى يخرج من أحشائك وأثبت مملكته، هو يبنى بيتاً لاسمى وأنا أثبت كرسي مملكته إلى الأبد، أنا أكون له أباً وهو يكون لى ابناً، إن تعوج أودبه بفضيب الناس وبضربات بنى آدم، ولكن رحمتى لا تنزع منه كما نزعته من شاول الذى أزلته من أمامك، ويأمن بيتك ومملكته إلى الأبد أمامك، كرسيك يكون ثابتاً إلى الأبد، فحسب جميع هذا الكلام وحسب كل هذه الرؤيا كذلك كلم ناثان داود.

(صموئيل الثانى ١/٧ - ١٧).

ويتضح من الفقرات السابقة أن الرب قد «استنكر» - فى البداية - أن يكون له «بيت» و«مقر» دائم، فهو إله «جوال»، وفعل ما فعل من مكرمات ومعجزات مع شعب بنى إسرائيل منذ خروجهم من مصر، وما تلى ذلك من دعم فى عصر القضاة حتى عصر داود، ولم يطلب لنفسه بيتاً.

وفى مقابل تفكير داود فى بناء «بيت أبدي» للرب، يرد الرب عليه

بعزمه على بناء «بيت أبدي» لداود ونسله من بعده.

وفي تطور سريع لفكرة «بناء السبوت» الواردة في هذه الفقرات، يتراجع الرب عن استنكاره لبناء بيت له، ويعطى «ترخيصاً» لبناء بيته، لا لداود صاحب الفكرة، بل لابنه الذي يخرج من أحشائه.

والنص السابق لا يحدد لنا من هو الابن الباني بين أبناء داود الكثيرين، وإن كان «الاختيار» آتٍ لا محالة فيما بعد.

ثم تمر الأحداث بعد ذلك، ويتم تأجيل فكرة الشروع في «المباني» حتى إشعار آخر، وتتوالى حروب داود ومنجزاته وأعماله، وتتعاظم أعداد قتلاه وضحاياه، ولم يكن سليمان - البتاء الموعود - قد ولد بعد، حتى تم بعثه إلى الحياة من أمه بتشيع - وهى الزوجة السابقة لأوريا الحثي اليوسى (صموئيل الثاني ١٢/٢٤).

ويضيق الرب ذرعاً بأفعال داود ومخالفاته، وينتقم من شعبه المقدس، ويقتل سبعين ألفاً منهم بالوباء فيما بين دان إلى بئر سبع، ويتمادى الرب في الانتقام، وهذه تفاصيل المشهد:

«فجعل الرب وباً في إسرائيل من الصباح إلى الميعاد فمات من الشعب من دان إلى بئر سبع سبعون ألف رجل، وبسط الملك يده على أورشليم ليهلكها فندم الرب عن الشر وقال للملاك المهلك الشعب كفى، الآن رد يدك، وكان ملاك الرب عند بيدر أرونة اليوسى، فكلم داود الرب عندما رأى الملك الضارب الشعب وقال: ها أنا أخطأت وأنا أذنبت وأما هؤلاء الخراف فماذا فعلوا، فلتكن يدك على وعلى بيت أبى..»

فجاء جاد في ذلك اليوم إلى داود وقال له: اصعد وأقم للرب مذبحاً

فى بيدر أرونة اليبوسى، فصعد داود حسب كلام جاد كما أمر الرب، فتطلع أرونة ورأى الملك وعبيده يقبلون إليه فخرج أرونة وسجد للملك على وجهه إلى الأرض، وقال أرونة: لماذا جاء سيدى الملك إلى عبده، فقال داود: لأشترى منك البيدر لكى أبني مذبحاً للرب فتكفّ الضربة عن الشعب، فقال أرونة لداود: فليأخذه سيدى الملك ويصعد ما يحسن فى عينيه، انظر البقر للمحرقة والنوارج وأدوات البقر حطباً، الكل دفعه أرونة المالك إلى الملك، وقال أرونة للملك الرب: إلهك يرضى عنك، فقال الملك لأرونة: لا، بل أشتري منك بثمان ولا أصعد للرب إلهي محرقات مجانية، فاشتري داود البيدر والبقر بخمسين شاقلاً من الفضة، وبني داود هناك مذبحاً للرب وأصعد محرقات وذبائح سلامة واستجاب الرب من أجل الأرض فكفت الضربة عن إسرائيل. (صموئيل ثان ٢٤/١٨ - ٢٥)

وهكذا تقترب حياة داود من نهايتها دون أن يحدد له الرب مكان بناء بيته، لم يرد - على الإطلاق - تحديد المكان البيت، ولا للمدينة التى ينبغى أن يبنى فيها، فالمسألة كلها «تطوع» من داود.

ثم يموت داود، ويتولى - دون أحقية له فى ذلك - الملك سليمان من بعده، ويخوض - هو أيضاً - مرحلة تثبيت دعائم مملكته، تارة سلماً مع الأعداء، وتارة أخرى سفكاً للدماء مع الأهل والأقارب.

وبعد أن تتحقق «الراحة» لسليمان، يفكر - كما فكر داود من قبل - فى راحة الرب:

«والآن فقد أراحنى الرب إلهى من كل الجهات، فلا يوجد خصم ولا

حادثة شر، وهأنذا قاتل على بناء بيت لاسم الرب إلهي كما كلم الرب داود أبي قائل: إن ابنك الذي أجعله مكانك على كرسيك هو يبنى البيت لاسمي» (الملوك الأول ٥/٤ - ٥).

ومن الواضح أن بني إسرائيل آنذاك لم تكن لديهم «صحيفة خبرة» في بناء مثل تلك الهياكل والمعابد، فهم جوالون رحالون، ولم تكن في أورشليم، بل وفي مملكة سليمان بأسرها تلك المعدات اللازمة للبناء، ناهيك عن قلة - أو انعدام - الخبراء المتخصصين في مثل تلك المشاريع الضخمة.

وكان «حيرام» ملك صور، على علاقة طيبة بالملك داود، وما أن سمع بمسح سليمان ملكاً مكان أبيه حتى سارع بأداء الواجب، والتهنئة للملك الجديد، ولم يدع سليمان تلك الفرصة تمر دون استغلالها، فبعث إلى «حيرام» يقول:

«والآن، فأمر أن يقطعوا لي أرزاً من لبنان ويكون عبيدي مع عبيدك وأجرة عبيدك أعطيك إياها حسب كل ما تقول؛ لأنك تعلم أنه ليس بيننا أحد يعرف قطع الخشب مثل الصيغونيين» (الملوك الأول ٥/٦).

وكانت إجابة «حيرام» سخية وعاجلة:

«فلما سمع حيرام كلام سليمان فرح جداً وقال مبارك اليوم الرب الذي أعطى داود ابناً حكيماً على هذا الشعب الكثير، وأرسل حيرام إلى سليمان قائلاً: قد سمعت ما أرسلت به إليّ، أنا أفعل كل مسرتك في خشب الأرز وخشب السرو، عبيدي ينزلون ذلك من لبنان إلى البحر وأنا أجعله أرمائاً في البحر إلى الموضع الذي تعرفني عنه وأنفضه هناك وأنت

تعمله وأنت تعمل مرضاتي بإعطائك طعاماً لبيتي، فكان حيرام يعطى سليمان خشب أرز وخشب سرو حسب كل مسرته، وأعطى سليمان حيرام عشرين ألف كُرَّ حِنْطَةٍ طعاماً لبيته وعشرين كُرَّ زيت رَضٍّ، هكذا كان سليمان يعطى حيرام سنة فسنة، والرب أعطى سليمان حكمة كما كلَّمه، وكان صلح بين حيرام وسليمان وقطعا كلاهما عهداً» (الملوك الأول ٧/٥ - ١٢).

ولم يدخر سليمان وسعاً من أجل إتمام بناء بيت الرب، إذ إنه: «وسخَّرَ الملك سليمان من جميع إسرائيل وكانت السُّخَّرُ ثلاثين ألف رجل، فأرسلهم إلى لبنان عشرة آلاف في الشهر بالنوبة، يكونون شهراً في لبنان وشهرين في بيوتهم، وكان أدونيرام على التسخير، وكان لسليمان سبعون ألفاً يحملون أحمالاً وثمانون ألفاً يقطعون في الجبل، ما عدا رؤساء الوكلاء لسليمان الذين على العمل ثلاثة آلاف وثلاث مئة المتسلطين على الشعب العاملين العمل، وأمر الملك أن يقلعوا حجارة كبيرة حجارة كريمة لتأسيس البيت حجارة مربعة، فتحثها بناؤو سليمان وبناؤو حيرام والجلبليون وهياؤوا الأخشاب والحجارة لبناء البيت» (الملوك الأول ١٣/٥ - ١٨).

ونظرة متأنية فاحصة للفقرات السابقة تظهر لنا ما يلي:

- * عدد العاملين في مجال حمل مستلزمات البناء ٧٠,٠٠٠ عامل
- * عدد العاملين في مجال قطع الجبال وإعداد حجارة البناء ٨٠,٠٠٠ عامل

* عدد الوكلاء القائمين للإشراف على العمال ٣,٣٠٠ وكيل

مع مراعاة أن عدد الوكلاء - في رواية أخرى - يزيد قليلاً، حيث يبلغ وفق رواية سفر أخبار الأيام الثاني (٢/٢) ٣٦٠٠ وكيل، ولا نعلم أى الروايتين أصدق.

* انتماء العاملين في هذا المشروع إلى ثلاث جنسيات مختلفة: الإسرائيليون، والصوريون (بناؤو حيرام) والجبليون.

ومعنى هذا، أن أبناء الأمم الأخرى - وهم يمثلون الأغلبية حيث كان لسليمان ثلاثين ألفاً فقط من العمال الإسرائيليين (الملوك الأول ١٢/٥) - قد أسهموا - تحت نظام السخرة كما تشير فقرات سفر الملوك الأول - في بناء بيت الرب وهيكله، ناهيك عن أن مستلزمات البناء نفسها، قد تم جلبها من خارج أورشليم، بل وكل فلسطين.

هذا الجيش العمالي الكبير، الذي يربو على مائة وخمسين ألف عامل، كان من المنتظر أن يكونوا قد أسهموا في بناء «معجزة معمارية» كبرى، سواء في مساحتها، أو في شكلها.

لكننا نلاحظ - حسب الرواية التي سنسوقها الآن - أن البناء كان متواضعاً في مساحته، جاء في الإصحاح السادس من سفر الملوك الأول:

«وكان في سنة الأربع مئة والثمانين لخروج بني إسرائيل من أرض مصر في السنة الرابعة لملك سليمان على إسرائيل في شهر زيو وهو الشهر الثاني أنه بنى البيت للرب، والبيت الذي بناه الملك سليمان للرب طوله ستون ذراعاً وعرضه عشرون ذراعاً وسمكه ثلاثون ذراعاً، والرواق قدام هيكل البيت طوله عشرون ذراعاً حسب عرض البيت وعرضه عشر أذرع

قدّام البيت، وعمل للبيت كوى مسقوفة مشبكة، وبنى مع حائط البيت طباقاً حواليه مع حيطان البيت حول الهيكل والمحراب وعمل غرفات فى مستديرها، فالطبقة السفلى عرضها خمس أذرع والوسطى عرضها ست أذرع والثالثة عرضها سبع أذرع؛ لأنه جعل للبيت حواليه من خارج أخصاصاً لئلا تتمكن الجوائز فى حيطان البيت، والبيت فى بنائه بنى بحجارة صحيحة مقتلعة ولم يسمع فى البيت عند بنائه منحت ولا معول ولا أداة من حديد» (الملوك الأول ٦/١ - ٧).

ولعل تهيئة الهيكل من الداخل وزخرفته هى التى أخذت من سليمان اهتماماً أكبر من الاهتمام بمساحة بيت الرب، فأبعاد الهيكل على نحو ما وردت فى الفقرات السابقة لا تشير إلا إلى معبد صغير خاص بسليمان، هو أشبه «بزاوية» للعبادة، وإن كان قد بالغ فى «تذهيبها» ونقوشها. فمساحة الهيكل هى ٦٠ ذراعاً طولاً × ٢٠ ذراعاً عرضاً × ٣٠ ذراعاً سمكاً، وقد استغرق البناء سبع سنين حتى تم واكتمل.

(الملوك الأول ٦/٣٨).

وهذه تفاصيل بيت الرب ومحتوياته وتخطيطه على نحو ما ورد فى سفر الملوك الأول ٦/١٤ - ٣٨:

«بنى سليمان البيت وأكمله، وبنى حيطان البيت من داخل بأضلاع أرز من أرض البيت إلى حيطان السقف وغشاه من داخل بخشب وفرش أرض البيت بأخشاب سرو، وبنى عشرين ذراعاً من مؤخر البيت بأضلاع أرز من الأرض إلى الحيطان، وبنى داخله لأجل المحراب أى قدس الأقداس، وأربعون ذراعاً كانت البيت أى الهيكل الذى أمامه، وأرز البيت

من داخل كان منقوراً على شكل قثاء وبراعم زهور، الجميع أرز، لم يكن يرى حَجَرٌ، وهياً محراباً في وسط البيت من داخل ليضع هناك تابوت عهد الرب، ولأجل المحراب عشرون ذراعاً طولاً وعشرون ذراعاً عرضاً وعشرون ذراعاً سمكاً، وغشاه بذهب خالص وغشى المذبح بأرز، وغشّى سليمان البيت من داخل بذهب خالص، وسد بسلاسل ذهب قدام المحراب، وغشاه بذهب، وجميع البيت غشاه بذهب إلى تمام كل البيت وكل المذبح الذي للمحراب غشاه بذهب، وعمل في المحراب كرويين من خشب الزيتون علو الواحد عشر أذرع، وخمس أذرع جناح الكروب الواحد وخمس أذرع جناح الكروب الآخر، عشر أذرع من طرف جناحه إلى طرف جناحه، وعشر أذرع الكروب الآخر، قياس واحد وشكل واحد للكرويين، علو الكروب الواحد عشر أذرع وكذا الكروب الآخر، وجعل الكرويين في وسط البيت الداخلى وبسطوا أجنحة الكرويين فمسّ جناح الواحد الحائط وجناح الكروب الآخر مس الحائط الآخر وكانت أجنحتهما في وسط البيت يمس أحدهما الآخر، وغشّى الكرويين بذهب، وجميع حيطان البيت في مستديرها رسمها نقشاً بنقر كروبيم ونخيل وبراعم زهور من داخل ومن خارج، وغشّى أرض البيت بذهب من داخل ومن خارج، وعمل لباب المحراب مصراعين من خشب الزيتون، الساكف والقائمتان مخمسة، والمصراعان من خشب الزيتون، ورسم عليهما نقش كروبيم ونخيل وبراعم زهور وغشاهما بذهب ورصع الكروبيم والنخيل بذهب، وكذلك عمل لدخل الهيكل قوائم من خشب الزيتون مربعة، ومصراعين من خشب السرو، المصراع الواحد دفتان تنطويان والمصراع الآخر دفتان تنطويان، ونحت كروبيم ونخيلاً وبراعم زهور وغشاهما بذهب مطرق على

المنقوش، وبنى الدار الداخلية ثلاثة صفوف منحوتة وصفاً من جوائز الأرز، فى السنة الرابعة أسس بيت الرب فى شهر زيو، وفى السنة الحادية عشرة فى شهر بول وهو الشهر الثامن أكمل البيت فى جميع أموره وأحكامه، فبناه فى سبع سنين» (الملوك الأول ٦/ ١٤ - ٣٨).

يقول H. G. Wells فى كتابه: موجز تاريخ العالم (ص ٩٣) عن الهيكل السليماني السابق وصفه: «إننا لو استخرجنا أطوال معبد سليمان لوجدنا أنه فى الإمكان وضعه داخل كنيسة صغيرة من كنائس الضواحي»^(١).

تبدو المبالة - إذن - فى هيئة البناء وعظمته، واضحة جلية، وهذا ما يقوله أيضاً اليهودى الأمريكى لويس براون فى كتابه المسمى: «حياة اليهود»، إذ يرى أن إنجازات سليمان فى أورشليم - وفى مقدمتها قصره الملكى - كانت تبدو فى عيون اليهود السذج من رعيته فخمة فخامة تفوق التصور، مع أنها لو قورنت بالقصور الهائلة فى مصر أو بابل أو الهند لبدت ضئيلة، سمجة الذوق^(٢).

ومما لا شك فيه أن هيكل سليمان لم يكن نموذجاً معمارياً فريداً، فلم يكن الملك سليمان وقومه من ذوى الخبرة فى تشييد مثل هذه المعابد والهيكل، ولو كان الإسرائيليون القدامى، الذين عاشوا فى مصر مئات السنين، قد أسهموا - حسبما يزعم البعض - فى بناء الأهرام، لتوارث

(١) نقل عن: حسين جميل، بطلان الأسس التى أقيم عليها وجود إسرائيل على الأرض العربية، وزارة الثقافة والإرشاد، السلسلة الإعلامية (٢) بغداد، ١٩٦٨، ص: ٢١.

(٢) حسن ظاظا، أبحاث فى الفكر اليهودى، مرجع سبق ذكره، ص: ٢٩.

الإسرائيليون تلك الخبرة، وذلك التراث، وما جلبوا العمال والبناء من لبنان.

إن التصميم العام لمعبد سليمان يشابه إلى حد كبير المعبد الكنعاني، مع اختلافات يسيرة تختمها اختلافات العقائد والشعائر، فالمعبد الكنعاني المكتشف في منطقة بيسان، ويرجع تاريخه إلى عام ١٣٠٠ ق.م - أي قبل أن تسطأ أقدام بني إسرائيل أرض كنعان - يتكون من غرفة خاصة مربعة تقع في نهاية الغرفة الرئيسة للمعبد، حيث يتم الوصول إلى الغرفة العليا عن طريق بعض الدرجات، التي تنتهي بوجود تمثال للإله، وتمثل هذه الغرفة العليا قدس الأقداس الذي ميز معبد سليمان، وهي كانت موجودة - كذلك - في معابد مصر والعراق^(١).

ولا نهدف هنا من عرض هذه الوقائع عن هيكل سليمان التقليل من إنجازاته، وإنما إظهار حقيقة موقع الهيكل فقط من النهضة المعمارية التي بدأها سليمان، ولم يكن جل همه هو تضخيم هذا الهيكل - على نحو ما نجد من تفاصيل أعماله الإنشائية - بقدر ما كان اهتمامه منصباً على "بناء عاصمة جديدة كاملة، استهلها داود ببناء بيته وتحصين القلعة على جبل صهيون.

لقد كانت لدى سليمان رؤية جديدة، وخريطة متكاملة، لعاصمة تضم بين أسوارها المعبد والقصر وسائر المباني الدينية والإدارية ومسكن زوجاته الكثيرات، لقد أقام سليمان في عاصمة ملكه حيًا دينيًا وآخر ملكيًا

(١) المزيد حول عمارة هيكل سليمان وطرازه في: عبد الحميد زايد، القدس الخالدة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة تاريخ المصريين (١٩٧)، ٢٠٠٠، ص: ٧٠ وما بعدها.

وثكنات للحرس، ومساكن لغير المؤمنين بشريعة موسى من نسائه، على نحو ما فعل مع بنت فرعون (الملوك الأول ٩/٢٤)، كما أقام سليمان الأسوار الفاصلة بين الأحياء والتحصينات والسلالم وخزانات المياه والأحواض والبرك^(١)، وهذا كله يعكس طبيعة المشروع السليماني العمراني الضخم في أورشليم كلها.

ولإعطاء طابع التقديس لبيت الرب في نفوس القوم، جمع سليمان شيوخ إسرائيل ورؤساء الأسباط والآباء في أورشليم، وأصعد تابوت العهد من صهيون - مدينة داود - إلى بيت الرب في أورشليم لتبدأ صفحة جديدة لهذه المدينة - أورشليم - في الفكر الديني الإسرائيلي، وليستريح «الرب» أخيراً، بعد طول تجوال:

«حينئذ تكلم سليمان: قال الرب: إنه يسكن في الضباب، إني قد بنيت لك بيت سكنى، مكاناً لسكنائك إلى الأبد»

(الملوك الأول ٨/١٢ - ١٣).

وكان نقل تابوت عهد الرب - الذي يضم لوحى الحجر اللذين وضعهما موسى في حوريب حين عاهد الرب بنى إسرائيل عند خروجهم من مصر - نقطة تحول كبرى في تاريخ بنى إسرائيل: دينياً وسياسياً، حتى يومنا هذا.

وهناك نقطة مهمة ينبغي الإشارة إليها في هذا المقام وهى أن الرب - إله إسرائيل - لم يحدد على الإطلاق، لا لداود ولا لسليمان، مكان إقامة بيته وسكناه، وإنما كان الأمر كله مجرد اختيار داود وسليمان، وهذا

(١) سيد فرج راشد، مرجع سبق ذكره، ص: ٦٦، ٦٧.

فى حد ذاته لا يعكس قداسة المكان الذى أقيم عليه بيت الرب أو خصوصيته - قبل البناء، وإنما اكتسب المكان ما اكتسب من تقديس وخصوصية بحلول تابوت العهد فيه، وإن كان المكان كله، والمدينة برمتها، لم تكن قد احتلت مكانة فى الفكر الدينى اليهودى إلا بعد سليمان بقرون.

وتنتهى مراسم تدشين بيت الرب فى حضرة سليمان وجميع بنى إسرائيل على النحو التالى:

«ثم إنَّ الملك وجميع إسرائيل معه ذبحوا ذبائح أمام الرب، وذبح سليمان ذبائح السلامة التى ذبحها للرب من البقر اثنين وعشرين ألفاً ومن الغنم مئة ألف وعشرين ألفاً فذسَّ الملك وجميع بنى إسرائيل بيت الرب، فى ذلك اليوم قدس الملك وسط الدار التى أمام بيت الرب لأنه قَرَّب هناك المحرقات والتقدمات وشحم ذبائح السلامة لأن مذبَح النحاس الذى أمام الرب كان صغيراً عن أن يسع المحرقات والتقدمات وشحم ذبائح السلامة، وعيد سليمان العيد فى ذلك الوقت وجميع إسرائيل معه جمهور كبير من مدخل حماة إلى وادى مصر أمام الرب إلهنا سبعة أيام وسبعة أيام أربعة عشر يوماً، وفى اليوم الثامن صرف الشعب فباركوا الملك وذهبوا إلى خيمهم فرحين وطيبى القلوب لأجل كل الخير الذى عمل الرب لداود عبده ولإسرائيل شعبه» (الملوك الأول ٨/٦٣ - ٦٦).

ومع هذا الجهد الكبير، والعمل الشاق الذى قام به سليمان من أجل بناء هيكل الرب، لم يكن إله بنى إسرائيل ليقبل السكنى الدائمة وتوقيع «عقد التملك» لهذا البيت إلا بشروط، تماماً كشروط أى تعاقد بين

طرفين:

«وكان كلام الرب إلى سليمان قائلاً: هذا البيت الذى أتت بانيه: إن سلكت فى فرائضى وعملت أحكامى وحفظت كل وصاياى للسلوك بها فإنى أقيم معك كلامى الذى تكلمت به إلى داود أبيك، وأسكن فى وسط بنى إسرائيل ولا أترك شعبى إسرائيل» (الملوك الأول ٦/١١ - ١٣).

ويضيف الرب فى موضع آخر، مؤكداً على شروط «التعاقد»:

«وكان لما أكمل سليمان بناء بيت الرب وبيت الملك وكل مرغوب سليمان الذى سر أن يعمل، أن الرب تراءى لسليمان ثانية كما تراءى له فى جبعون، وقال الرب: قد سمعت صلاتك وتضرعت الذى تضرعت به أمامى، قدسْتُ هذا البيت الذى بنيته لأجل وضع اسمى فيه إلى الأبد وتكون عيناي وقلبي هناك كل الأيام، وأنت إن سلكت أمامى كما سلك داود أبوك بسلامة قلب واستقامة وعملت حسب كل ما أوصيتك وحفظت فرائضى وأحكامى، فإنى أقيم كرسى ملكك على إسرائيل إلى الأبد كما كلمت داود أباك قائلاً لا يعدم لك رجل عن كرسى إسرائيل، إن كنتم تنقلبون أنتم أو أبناؤكم من ورائى ولا تحفظون وصاياى فرائضى التى جعلتها أمامكم، بل تذهبون وتعبدون آلهة أخرى وتسجدون لها، فإنى أقطع إسرائيل عن وجه الأرض التى أعطيتهم إياها والبيت الذى قدسسته لاسمى أنفيه من أمامى ويكون إسرائيل مثلاً وهزأة فى جميع الشعوب، وهذا البيت يكون عبرة، كل من يمر عليه يتعجب ويصفر ويقولون لماذا عمل الرب هكذا لهذه الأرض ولهذا البيت، فيقولون من أجل أنهم تركوا الرب إلههم الذى أخرج آباءهم من أرض مصر وتمسكوا

بآلهة أخرى وسجدوا لها وعبدوها لذلك جلب الرب عليهم كل هذا الشر». (الملوك الأول ٩/١ - ٩).

فإقامة الرب في هذا المسكن تتطلب من بني إسرائيل بعامّة، ومن سليمان على وجه الخصوص تحقيق عدة شروط، وإلا فلن يستمر الرب في سكناه. من هذه الشروط - حسبما جاء في النص السابق - ما يلي:
أولاً - أن يسلك سليمان - كأبيه داود - طريق الرب بسلامة قلب واستقامة، وهذا لم يحدث.

ثانياً - أن يعمل سليمان حسب كل ما أوصاه به الرب، وأن يحفظ فرائضه وأحكامه، وهذا أيضاً لم يحدث.

ثالثاً - أن لا يحيد بنو إسرائيل وأبنائهم عن طريق الرب، وأن يحفظوا وصاياه وفرائضه، وهذا لم يتحقق.

رابعاً - أن لا يعبد بنو إسرائيل آلهة الأمم الأخرى، وقد عبد الإسرائيليون آلهة الأمم المحيطة بهم.

وبناءً على إخلال سليمان وبني إسرائيل - حسبما تشير نصوص العهد القديم كله - بشروط «عقد التملك أو السكن» في هيكل الرب بأورشليم، فإن الرب - وهذا طبيعي ومنطقي - قد ترك سكناه، بل جعل هذا الهيكل الذي أقيم له شيئاً «طريداً» و«منبوذاً» من قبل الرب، وعلاوة على ذلك: «هذا البيت يكون عبرة، كل من يمر عليه يتعجب ويصفر ويقولون: لماذا عمل الرب هكذا لهذه الأرض ولهذا البيت؟ فيقولون: من أجل أنهم تركوا الرب إلههم...».

ويبدو واضحاً من الفكر الإسرائيلي أن تقديس «الهيكل» يرجع بالدرجة الأولى لأن سليمان - رمز المملكة والدولة الإسرائيلية - هو الذى بناه، لكننا نقف فى حيرة من هذه المسألة عندما نجد أن سليمان - وفق روايات العهد القديم - قد بنى معابد ومذابح ومرتفعات أخرى للآلهة الأخرى:

«ذهب سليمان وراء عشتورت إلهة الصيدونيين وملكوم رجس العمونيين، وعمل سليمان الشر فى عينى الرب ولم يتبع الرب تماماً كداود أبيه - حينئذ بنى سليمان مرتفعة لكموش رجس الموآبيين على الجبل الذى تجاه أورشليم، ولمولك رجس بنى عمون، وهكذا فعل لجميع نساؤه الغريبات اللاتى كن يوقدن ويذبحن لآلهتهن»

(الملوك الأول ١١/٥ - ٨).

بل إن وصف معبد سليمان الوارد فى سفر الملوك ليزخر بالصور الوثنية فى ظاهرها^(١).

فلماذا يخصص الإسرائيليون قداستهم لهيكل واحد دون سائر هذه الهياكل والمرتفعات التى بناها سليمان لآلهة الأمم الأخرى؟ هل لأنها وثنية؟

إن تاريخ بنى إسرائيل وفق روايات العهد القديم منذ الخروج من مصر وحتى نهاية هذا الكتاب، كله - باستثناء فترات وجيزة قصيرة - وثنية وشرك وكفر.

ربما لأن هيكل سليمان الأورشليمي «خاص» ببنى إسرائيل دون سائر

(١) انظر: كارين أرمسترونج، مرجع سبق ذكره، ص: ٩٧.

الأمم المجاورة، ومن ثم كانت له هذه المكانة!!

وربما لأنه كان أكبرها وأعظمها!!

وربما لأنه كان في العاصمة، الرمز السياسي الوحيد في تاريخ بني إسرائيل، وبالتالي تمخضت حوله وبسببه تطلعات قومية ما كان لنا أن نجد لها حول سائر المعابد والمرتفعات الأخرى التي بناها سليمان، وهذا في رأيي هو الأرجح.

إن معبد سليمان كان مكانًا خاصًا بعبادته وتضرعه، ولم يكن - منذ أن شرع سليمان في بنائه حتى أتمه - مقصدًا «للشعب»، ويتضح هذا من صلاة سليمان التي قدمها للرب بعد الانتهاء من البناء، إذ يقول: «فالتفت إلى صلاة عبدك وإلى تضرعه أيها الرب إلهي واسمع الصراخ والصلاة التي يصليها عبدك أمامك اليوم، لتكون عينك مفتوحة على هذا البيت ليلاً ونهاراً على الموضع الذي قلت: إن اسمي يكون فيه لتسمع الصلاة التي يصليها عبدك في هذا الموضع» (الملوك الأول ٨/٢٨ - ٢٩).

النص يشير - ويكرر إشارته - إلى أن هذا البيت لصلاة عبد الرب سليمان وتضرعه فقط.

لكن كاتب النص قد أدرك بعد تخصيص الهيكل لعبادة سليمان ثلاث مرات، أنه لا مكان لشعب إسرائيل في الهيكل، ومن ثم أضاف في الفقرة التالية لما سبق كلمة واحدة، لتشارك الشعب مع الملك في «حق الانتفاع» بهذا الموضع، وألحق بالعبارة ما تتطلبه من تعديلات.

«واسمع تضرع عبدك وشعبك إسرائيل الذين يصلون في هذا الموضع» (الملوك الأول ٨/٣٠).

إن كلمة «وشعبك» وما تبعها من تعديلات في العبارة: «إسرائيل الذين يصلون في هذا الموضع» لا محل لها هنا وغير مقصودة على الإطلاق بعد أن كرر سليمان - ثلاث مرات - «خصخصة» الموضع، وانفراده «بحق الانتفاع» دون شريك.

ويؤكد زعمنا السابق أن الهيكل، وأورشليم كلها، قد ظلا غير محل قداسة على الإطلاق فيما بعد سليمان - وهذا ما سنفرد له حديثاً إحصائياً وفق شهادات العهد القديم - الأمر الذي يؤكد على خصوصية «الهيكل» لسليمان، وانتفاء أى شبهة لعموميته بالنسبة لبني إسرائيل من ناحية، وعلى عدم تفرد هذا الهيكل - أيضاً - بالنسبة لسليمان، إذ بنى مرتفعات ومذابح - وهى بمثابة أماكن للعبادة - لآلهة زوجاته المتعددة، وكان لكل إله مطلبه الذى يتفق مع طقوس عبادته.

ولم يكن موقف الأغيار من الأمم الأخرى تجاه هيكل سليمان أحسن حالاً من موقف الإسرائيليين أنفسهم من هذا الهيكل بعد سليمان وانقسام مملكته، وهذا أمر منطقي معقول، فإذا كان الإسرائيليون لا يقيمون وزناً لهذا الهيكل، ولا يتمتع فى نفوسهم بأدنى قداسة، وهو بيت «يهوه» إلههم ومحل إقامته، فهل يمكن لنا أن نتظر ممن لا يؤمنون بالإله «يهوه» أن يقوموا بالحفاظ على هذا البيت ورعايته وتقديسه؟!

ما دام الأمر كذلك، وما دام الإسرائيليون أنفسهم قد بدأوا بالعدوان على بيت الرب على نحو ما وجدنا فى تاريخ الحقبة التالية لانقسام المملكة، فلا بأس أن يفعل البابليون - وغيرهم - ما فعلوه بالهيكل.

ولقد لعب البابليون^(١) دوراً مهماً في تاريخ الشرق الأدنى وبخاصة في القرن السادس قبل الميلاد، حيث استولوا على جميع الدويلات القائمة في سوريا وفي فلسطين، وبلغوا أوج ازدهارهم وعظمتهم في عهد ملكهم نبوخذ نصر^(٢) (بختنصر) خليفة نبوولاسر، وكان نبوخذ نصر من أعظم الملوك الكلدانيين، ودام حكمه قرابة ثلاثة وأربعين سنة (٦٠٥ - ٥٦٢ ق.م)، وقد قام بحملتين حربيتين على مملكة يهوذا وقضى عليها وسبى اليهود إلى بلاد بابل.

(١) البابليون: من أقدم الشعوب السامية التي هاجرت من شبه الجزيرة العربية واستقرت في أرض الرافدين، ويرجح حدوث هذه الهجرة منذ الألف الثالث ق.م، وقد كون البابليون حضارة راقية في هذه المنطقة، إذ لهم الفضل في اختراع «الكتابة الصوتية»، كما اشتهر من ملوكهم حمورابي الذي ازدهرت المنطقة في عهده ازدهاراً دينياً واقتصادياً وسياسياً بفضل تشريعاته الحكيمة المشهورة والمعروفة بقوانين حمورابي (حوالي ١٧٠٠ ق.م)، وقد ظل البابليون في صراع مع الدول المجاورة، وتمكنوا في كثير من الفترات من بسط نفوذهم، ويحدثنا العهد القديم عن غزو البابليين لأورشليم وتدميرهم للهيكل وتخريبهم للمدينة على يد نبوخذ نصر البابلي عام ٥٨٦ ق.م تقريباً، ونفى يهود اورشليم إلى بابل، ولا شك أن البابليين بحضارتهم ومعقلاتهم قد أثروا تأثيراً بالغاً على الإسرائيليين المنفيين، وقد بدأ المنفيون في إعادة النظر في تسجيل شرائعهم وشرحها أثناء وجودهم في بابل، وكان التلمود البابلي المشهور نتيجة هذه الحركة الفكرية اليهودية.

للمزيد حول البابليين: لغتهم وحضارتهم وديانتهم انظر: ص ٢٣ - ٤٢.

سبتيو موسكاتي، الحضارات السامية القديمة، مرجع سبق ذكره، ص: ٦١ وما بعدها.

انظر أيضاً: إسرائيل ولفنسون، تاريخ اللغات السامية ص: .

(٢) يعرف نبوخذ نصر الثاني لأن الأول نبوخذ نصر الذي ينتمي إلى السلالة البابلية الرابعة والذي استعاد استقلال بابل أيام حكم الآشوريين لها في القرن الثاني عشر قبل الميلاد (١١٢٤ - ١١٠٣ ق.م).

ولقد وجه نبوخذ نصر حملته الأولى عام ٥٩٧ ق.م، وذلك في عهد الملك «يهوياقيم» الذى حكم أورشليم، كما وجه حملته الثانية عام ٥٨٦ ق.م، بل وجاء فى هذه الحملة بنفسه إلى أورشليم، وها هى تفاصيل الحملتين كما يسجلها لنا سفر الملوك الثانى، فى الإصحاح الرابع والعشرين وفى الإصحاح الخامس والعشرين كذلك.

«فى أيامه (يهوياقيم) صعد نبوخذ ناصر ملك بابل فكان له يهوياقيم عبداً ثلاث سنين ثم عاد فتمرد عليه، فأرسل الرب عليه غزاة الكلدانيين وغزاة الآراميين وغزاة الموابيين وغزاة بنى عمون وأرسلهم على يهوذا لبيدها حسب كلام الرب الذى تكلم به عن يد عبيده الأنبياء، إن ذلك كان حسب كلام الرب على يهوذا لينزعهم من أمامه لأجل خطايا منسى حسب كل ما عمل، وكذلك لأجل الدم البرى الذى سفكه لأنه ملأ أورشليم دمًا بريئًا ولم يشأ الرب أن يغفر وبقية أمور يهوياقيم وكل ما عمل أما هى مكتوبة فى سفر أخبار الأيام للملوك يهوذا، ثم اضطجع يهوياقيم مع آبائه وملك يهوياكين ابنه عوضاً عنه، ولم يعد أيضاً ملك مصر يخرج من أرضه؛ لأن ملك بابل أخذ من نهر مصر إلى نهر الفرات كل ما كان لملك مصر.

كان يهوياكين ابن ثمانى عشرة سنة حين ملك وملك ثلاثة أشهر فى أورشليم، واسم أمه تخوشتا بنت ألتانان من أورشليم، وعمل الشر فى عيني الرب حسب كل ما عمل أبوه، فى ذلك الزمان صعد عبيد نبوخذناصر ملك بابل إلى أورشليم فدخلت المدينة تحت الحصار، وجاء نبوخذ ناصر ملك بابل على المدينة وكان عبيده يحاصرونها، فخرج يهوياكين ملك يهوذا إلى ملك بابل هو وأمه وعبيده ورؤساؤه وخصيائه

وأخذ ملك بابل في السنة الثامنة من ملكه، وأخرج من هناك جميع خزان بيت الرب وخزائن بيت الملك وكسر كل آنية الذهب التي عملها سليمان ملك إسرائيل في هيكل الرب كما تكلم الرب، وسبى كل أورشليم وكل الرؤساء وجميع جبابرة البأس عشرة آلاف مسبى وجميع الصنائع والأقيان، لم يبق أحد إلا مساكن شعب الأرض، وسبى يهوياكين إلى بابل وأم الملك ونساء الملك وخصيانه وأقوياء الأرض سباهم من أورشليم إلى بابل، وجميع أصحاب البأس سبعة آلاف والصنائع والأقيان ألف وجميع الأبطال أهل الحرب سباهم ملك بابل إلى بابل، وملك ملك بابل متنبأ عمه عوضاً عنه وغير اسمه إلى صدقيا.

كان صدقيا ابن إحدى وعشرين سنة حين ملك، وملك إحدى عشرة سنة في أورشليم واسم أمه حميطل بنت إرميا من لينة، وعمل الشر في عيني الرب حسب كل ما عمل يهوياقيم؛ لأنه لأجل غضب الرب على أورشليم وعلى يهوذا حتى طرحهم من أمام وجهه كان أن صدقيا تمرد على ملك بابل» (الملوك الأول ١/٢٤ - ٢٠).

«وفي السنة التاسعة للملك في الشهر العاشر في عاشر الشهر جاء نبوخذ ناصر ملك بابل هو وكل جيشه على أورشليم ونزل عليها وبنوا عليها أبراجاً حولها، ودخلت المدينة تحت الحصار إلى السنة الحادية عشرة للملك صدقيا، وفي تاسع الشهر اشتد الجوع في المدينة ولم يكن خبز لشعب الأرض، فتغرت المدينة وهرب جميع رجال القتال ليلاً من طريق الباب بين السورين اللذين نحو جنة الملك، وكان الكلدانيون حول المدينة مستديرين، فذهبوا في طريق البرية، فتبعته جيوش الكلدانيين الملك فأدركوه في بركة أريحا وتفرقت جميع جيوشه عنه، فأخذوا الملك

وأصعدوه إلى ملك بابل إلى ريلة وكلموه بالقضاء عليه، وقتلوا بنى صدقيا أمام عينيه وقلعوا عيني صدقيا وقيدوه بسلسلتين من نحاس وجاءوا به إلى بابل.

وفى الشهر الخامس فى سابع الشهر وهى السنة التاسعة عشرة للملك نبوخذ ناصر ملك بابل جاء نبوزرئادان رئيس الشرط عبد ملك بابل إلى أورشليم، وأحرق بيت الرب وبيت الملك وكل بيوت أورشليم وكل بيوت العظماء أحرقها بالنار وجميع أسوار أورشليم مستديراً هدمها كل جيوش الكلدانيين الذين مع رئيس الشرط، وبقيّة الشعب الذين بقوا فى المدينة والهاريون الذين هربوا إلى ملك بابل وبقيّة الجمهور سباهم نبوزرئادان رئيس الشرط، ولكن رئيس الشرط أبقى من مساكن الأرض كرامين وفلاحين، وأعمدة النحاس التى فى بيت الرب والقواعد وبحر النحاس الذى فى بيت الرب كسرهما الكلدانيون وحملوا نحاسها إلى بابل، والقذور والرفوش والمقاص والصحون وجميع آتية النحاس التى كانوا يخدمون بها أخذوها والمجامر والمناضح، ما كان من ذهب فالذهب وما كان من فضة فالفضة أخذها رئيس الشرط، والعمودان والبحر الواحد والقواعد التى عملها سليمان لبيت الرب لم يكن وزن لنحاس كل هذه الأدوات، ثمانى عشرة ذراعاً ارتفاع العمود الواحد وعليه تاج من نحاس وارتفاع التاج ثلاث أذرع والشبكة والرمانات التى على التاج مستديرة جميعها من نحاس، وكان للعمود الثانى مثل هذه على الشبكة.

وأخذ رئيس الشرط سرايا الكاهن الرئيس وصفينا الكاهن الثانى وحارسى الباب الثلاثة، ومن المدينة أخذ خصياً واحداً كان وكيلاً على رجال الحرب وخمسة رجال من الذين ينظرون وجه الملك الذين وجدوا

في المدينة وكاتب رئيس الجند الذي كان يجمع شعب الأرض وستين رجلاً من شعب الأرض الموجودين في المدينة، وأخذهم نبوزرئادان رئيس الشرط وسار بهم إلى ملك بابل إلى ريلة، فضربهم ملك بابل وقتلهم في ريلة في أرض حماة، فسبى يهوذا من أرضه.

وأما الشعب الذي بقى في أرض يهوذا الذين أبقاهاهم نبوخذ ناصر ملك بابل فوكل عليهم جدليا بن أخيقام بن شافان، ولما سمع جميع رؤساء الجيوش هم ورجالهم أن ملك بابل قد وكل جدليا أنوا إلى جدليا إلى المصفاة وهم إسماعيل بن نشيا ويوحنا بن قاريح وسرايا بن تنحومث النطوفاتي ويازانيا ابن المعكى هم ورجالهم، وحلف جدليا لهم ولرجالهم وقال لهم: لا تخافوا من عبيد الكلدانيين، اسكنوا الأرض وتعيدوا الملك بابل فيكون لكم خير، وفي الشهر السابع جاء إسماعيل بن نشيا بن أليشمع من النسل الملكي وعشرة رجال معه وضربوا جدليا فمات أيضاً اليهود والكلدانيين الذين معه في المصفاة، فقام جميع الشعب من الصغير إلى الكبير ورؤساء الجيوش وجاءوا إلى مصر لأنهم خافوا من الكلدانيين، وفي السنة السابعة والثلاثين لسبى يهوياكين ملك يهوذا في الشهر الثاني عشر في السابع والعشرين من الشهر رفع أويل مرووخ ملك بابل في سنة تملكه رأس يهوياكين ملك يهوذا من السجن، وكلمة بخير وجعل كرسية فوق كراسى الملوك الذين معه في بابل، وغير ثياب سجنه وكان يأكل دائماً الخبز أمامه كل أيام حياته، ووظيفته وظيفة دائمة تعطى له من عند الملك أمر كل يوم بيومه كل أيام حياته» (الملوك الأول ١/٢٥ - ٣٠).

لم تسلم أورشليم إذن من بطش البابليين، ولم يسلم بيت الرب أيضاً من انتقامهم، كما لم يسلم اليهود أنفسهم من نتيجة الهزيمة، والتي

تمثلت فى سبى الجبابرة منهم وجميع الصناع والأقيان، بل والملك وذويه، ولم يعد فى المدينة سوى «مساكين شعب الأرض».

أما بيت الرب، فقد تم الاستيلاء على ما فيه فى المرة الأولى، ثم قام «نبوخذ نصر» رئيس شرط «نبوخذ نصر» فى المرة الثانية بما هو أنكى وأشد من الاستيلاء، إذ «أحرق بيت الرب وبيت الملك وكل بيوت أورشليم وكل بيوت العظماء أحرقتها بالنار، وجميع أسوار أورشليم مستديراً هدمها».

وهكذا يتعرض «الهيكل» لعملية غزو وحشية، لا يمكن لنا من خلال وصف بعض ملامحها فى النصوص السابقة، أن نتوقع بقاء الهيكل على حاله، فالذى قام بهدم جميع أسوار أورشليم، وحرق الهيكل والبيوت، لا يمكن أن يكون قد ترك الهيكل واكتفى بحرقه، المنطق يقول: إن هؤلاء الغزاة قد هدموا كل ما أمكن هدمه بهدف إزالة دعائم مملكة يهوذا من على خارطة ممالك المنطقة.

فإذا كان الغزاة قد عاثوا فى الأرض فساداً حتى «أهلكوا الآنية الثمينة» كما يخبرنا سفر أخبار الأيام الثانى (٢٠/٣٦)، فهل يعقل أن يبقى الهيكل دون إهلاك وتدمير؟!.

وبعد مرور سبعة وثلاثين عاماً على تلك الأحداث، نجد تطوراً - دون مبرر - يحل فى بابل وذلك فى فترة حكم «أويل مردوخ» ملك بابل:

«فى السنة السابعة والثلاثين لسى «يهوياكين» ملك يهوذا، فى الشهر الثانى عشر، فى السابع والعشرين من الشهر، رفع أويل مردوخ ملك بابل فى سنة تملكه رأس يهوياكين ملك يهوذا من السجن، وكلمه بخير، وجعل كرسية فوق كراسى الملوك الذين معه فى بابل، وغير ثياب سجنه، وكان يأكل الخبز أمامه كل أيام حياته، ووظيفته وظيفة دائمة تعطى له من

عند الملك، أمر كل يوم بيومه كل أيام حياته»

(سفر الملوك الثاني ٢٥/٢٧ - ٣٠).

لا يقدم لنا العهد القديم أية تفاصيل أخرى عن السبعين سنة التي قضوها المنفيون في بابل، ولا نعرف - أيضاً - أسباب هذا التحول البابلي الفجائي تجاه ملك يهوذا المنفى في بابل.

وبعد تمام السبعين عاماً، بدأت مملكة فارس تظهر في الأفق كقوة عظمى آنذاك:

«وفي السنة الأولى لكورش ملك فارس، لأجل تكميل كلام الرب بقم إرميا، نبأ الرب روح كورش ملك فارس، فأطلق نداء في مملكته وكذا بالكتابة قائلاً: هكذا قال كورش ملك فارس: إن الرب إله السماء قد أعطاني جميع ممالك الأرض، وهو أوصاني أن أبني له بيتاً في أورشليم التي في يهوذا، مَنْ منكم من جميع شعبه الرب إلهه معه وليصعد».

(أخبار الأيام الثاني ٣٦/٢٢ - ٢٣).

وتكرر العبارتان السابقتان مرة أخرى مباشرة وذلك في افتتاحية سفر عزرا ويتم استكمالهما على النحو التالي:

«من منكم من كل شعبه ليكن إلهه معه ويصعد إلى أورشليم التي في يهوذا فيبنى بيت الرب إله إسرائيل، هو الإله الذي في أورشليم، وكل من بقي في أحد الأماكن حيث هو مستغرب فلينجده أهل مكانه بفضة وبذهب وبأمتعة وبهائم مع التبرع لبيت الرب الذي في أورشليم»

(عزرا ١/٣ - ٤).

الملك الفارسي كورش يوصيه الرب إله السماء بأن يبنى له بيتاً في أورشليم.

والملك كورش يفتح باب العودة إلى يهوذا.

والملك كورش يقود حملة تبرعات «نقدية وعينية» لبناء بيت الرب. إذن، لقد تهود كورش، وإن لم تقل نصوص العهد القديم ذلك، فمعنى استجابته لوصايا «إله إسرائيل»، أنه قد آمن به وخضع له، لكن الحفريات تشير إلى أنه كان ينسب انتصاراته إلى الإله البابلي مردوخ^(١)، ومن ثم فإننا لا نفهم سر أسلوب كورش وخضوعه لإله إسرائيل على النحو الذي يبدو جلياً في سفر عزرا.

وثمة نقطة مهمة يمكن استخلاصها من ذلك الإعلان الملكي، وهي أن النية تتجه إلى بناء بيت الرب، وليس ترميمه أو إصلاحه نتيجة ما يكون قد حل به إبان الغزو البابلي، وهي هنا إشارة واضحة إلى «البناء من جديد»، دون تحديد لمكان هذا البناء كذلك.

ولاقت دعوة الملك قبولا لدى الكثيرين من اليهود المنفيين.

ويدفع الإيمان بإله إسرائيل، والذي استقر في قلب الملك الفارسي، يدفعه لإعادة ما استولى عليه الملك البابلي نبوخذنصر من بيت الرب:

«والملك كورش أخرج آية بيت الرب التي أخرجها نبوخذنصر من أورشليم وجعلها في بيت آلهته، وهذا عددها...» (عزرا ١/٧ - ١١).

ويبدو أن كاتب سفر عزرا قد أدرك أن الوصية الملكية ببناء بيت للرب في أورشليم لم تحدد مكان ذلك البيت، فختتم الإصحاح الثاني قائلاً:

«والبعض من رؤوس الآباء عند مجيئهم إلى بيت الرب الذي في أورشليم تبرعوا لبيت الرب لإقامته في مكانه...» (عزرا ٢/٦٨).

(١) ج. ستافورد رايت، تفسير سفرى عزرا ونحميا في «تفسير الكتاب المقدس» إعداد: فرنس دلتس، دار منشورات النفير، بيروت، ١٩٦٦، ص: ٣٣٨.

والعبارة تشير - كذلك - إلى إقامة بيت الرب، لا إلى إصلاحه أو ترميمه أو تجديده، أى أن البابليين كانوا قد أتوا على البيت ودمروه تمامًا، ويؤكد زعمنا هذا عبارة أخرى وردت فى الإصحاح الثالث من سفر عزرا، تقول:

«ابتدأوا من اليوم الأول من الشهر السابع يصعدون محرقات للرب، وهيكل الرب لم يكن قد تأسس». (عزرا ٦/٣).

وتأكيداً لرأينا، نورد عبارة على لسان القائمين بالبناء فى المرة الثانية إذ قالوا: «ولكن بعد أن أسخط آبائنا إله السماء دفعهم ليد نبوخذنصر ملك بابل الكلدانى الذى هدم البيت وسبى الشعب إلى بابل». (عزرا ٥/١٢). وهكذا يكون «الهيكل» قد دمر تمامًا ولم يعد له أساس، على أيدي البابليين.

مرة أخرى يبنى الهيكل.

ومرة أخرى يكون «للأجانب والأغيار» دور بارز فى إعادة البناء:

«وأعطوا فضة للنحاتين والتجارين ومأكلاً ومشرباً وزيتاً للصيادين والصوريين لياتوا بخشب أرز من لبنان إلى بحر يافا حسب إذن كورش ملك فارس لهم». (عزرا ٧/٣).

وتمر عملية البناء الجديد بسلسلة من المناورات من قبل المناوئين للبناء، من أبناء الأمم والشعوب التى أسكنت مكان المنفيين فى أورشليم وما حولها، إذ كانوا يدركون جيداً أن إعادة بناء بيت إله إسرائيل يعنى عودة مركز التآمر اليهودى تجاه ملوك الأرض (عزرا ٦/٤ - ١٣).

لكن الملك الفارسى الجديد داريوس، يبحث فى «أرشيف» القصر، ليجد أمر الملك كورش ببناء البيت مع تحديد لمساحته، مع أن هذا التحديد لم يرد

على الإطلاق في النصين اللذين أوردتهما في نهاية سفر الأخبار الثاني، وبداية سفر عزرا، أما المساحة الجديدة للهيكل الجديد فهي كما يلي:

«ولتوضع أسسه: ارتفاعه ستون ذراعاً، وعرضه ستون ذراعاً، بثلاثة صفوف من حجارة عظيمة وصف من خشب جديد..» (عزرا ٣/٦ - ٤).

ونلاحظ هنا أن عرض «الهيكل» الذي بناه سليمان، وعلى نحو ما أخبرنا سفر الملوك الأول (٢/٦) كان عشرين ذراعاً، بينما بلغ هنا ثلاثة أضعاف ما كان عليه (ستون ذراعاً).

وتصدر الأوامر الملكية الفارسية باستمرارية البناء، بل «كل إنسان يغير هذا الكلام (الأمر باستمرار البناء) تسحب خشبة من بيته ويعلق مصلوباً عليها، ويجعل بيته مزبلة من أجل هذا، والله الذي أسكن اسمه هناك يهلك كل ملك وشعب يمد يده لتغيير أو لهدم بيت الله الذي في اورشليم» (عزرا ١١/٦ - ١٢).

بقى أن نعرف أن صاحب هذا القرار الجريء، ليس كورش الفارسي الذي أشرت إلى «تهويده»، وإنما هو الملك «داريوس»، وما أظن أن يصدر مثل هذا «القرار الخطير»، إلا إذا كان هو أيضاً قد «تهود».

ويأتى ملك فارسى آخر، هو «ملك الملوك» ارتخشستا، ليؤكد لنا - من خلال رسالته إلى عزرا الكاهن - «تهود» المملكة الفارسية حيث قال:

«من ارتخشستا - ملك الملوك - إلى عزرا الكاهن، كاتب شريعة إله السماء الكامل، إلى آخره قد صدر منى أمر إن كل من أراد فى ملكى من شعب إسرائيل وكهنته واللاويين أن يرجع إلى اورشليم معك فليرجع، من أجل أنك مرسل من قبل الملك ومشيريه السبعة لأجل السؤال عن يهوذا وأورشليم حسب شريعة إلهك التى بيدك، ولحمل فضة وذهب تبرع

به الملك ومشيره لإله إسرائيل الذي في أورشليم مسكنه، وكل الفضة والذهب التي تجد في كل بلاد بابل مع تبرعات الشعب والكهنة المتبرعين لبيت إلههم الذي في أورشليم، لكي تشتري عاجلاً بهذه الفضة ثياباً وكباشاً وخرافاً وتقدماتها وسكائبها وتقريبها على المذبح الذي في بيت إلهكم الذي في أورشليم، ومهما حسن عندك وعند إخوتك أن تعملوه بباقي الفضة والذهب فحسب إرادة إلهكم تعملونه، والآنية التي تعطى لك لأجل خدمة بيت إلهك فسلمها أمام إله أورشليم، وباقي احتياج بيت إلهك الذي يتفق لك أن تعطيه فأعطه من بيت خزائن الملك، ومنى أنا أرخصت الملك صدر أمر إلى كل الخزنة الذين في عبر النهر إن كل ما يطلبه منكم عزرا الكاهن كاتب شريعة إله السماء فليعمل بسرعة، إلى مئة وزنة من الفضة ومئة كسر من الحنطة ومئة بث من الخمر ومئة بث من الزيت والملح من دون تقييد، كل ما أمر به إله السماء فليعمل باجتهاد لبيت إله السماء؛ لأنه لماذا يكون غضب على ملك الملك وبنيه، ونعلمكم أن جميع الكهنة واللاويين والمغنين والبوابين والتتبيين وخدام بيت الله هذا لا يؤذن أن يلقي عليهم جزية أو خراج أو خفارة، أما أنت يا عزرا فحسب حكمة إلهك التي بيدك ضع حكماً وقضاً يقضون لجميع الشعب الذي في عبر النهر من جميع من يعرف شرائع إلهك والذين لا يعرفون فعلموهم، وكل من لا يعمل شريعة إلهك وشريعة الملك فليقتض عليه عاجلاً إما بالموت أو بالنفي أو بغرامة المال أو بالحبس.

مبارك الرب إله آبائنا الذي جعل مثل هذا في قلب الملك لأجل تزيين بيت الرب الذي في أورشليم، وقد بسط على رحمة أمام الملك ومشيره وأمام جميع رؤساء الملك المقتدرين، وأما أنا فقد تشددت حسب يد الرب إلهي على وجمعت من إسرائيل رؤساء ليصعدوا معي» (عزرا ٧/١٢ - ٢٨).

فالملك الفارسي الثالث - أرتخشستا يعترف بأن إله إسرائيل هو إله السماء الكامل.

ويفتح باب العودة للمنفين جميعاً.

ويتبرع بالذهب والفضة لإله إسرائيل الذي في أورشليم مسكنه.

ويعيد ما تم سلبه على أيدي البابليين من الإسرائيليين.

بل ويوفر جميع احتياجات بيت إله إسرائيل من خزانة الملك، ويصدر أوامره إلى كل الخزنة بتوفير ما يطلبه عزرا «عزرا الكاهن كاتب شريعة إله السماء».

والملك الفارسي يفعل ذلك عن إيمان ويقين بأن عدم الاستجابة إلى «المطالب الإسرائيلية» قد يعرضه لغضب الرب الإله، لا إله فارس بالطبع، وإنما إله إسرائيل الذي تمكن من قلبه ووجدانه.

«كل ما أمر به إله السماء فليعمل باجتهاد لبيت إله السماء لأنه لماذا يكون غضب على ملك الملك وبنيه؟!» (عزرا ٧/٢٣).

كما تم إعفاء الكهنة واللاويين وقطاع عريض من الإسرائيليين من أداء الجزية أو الخراج أو الخفارة، بأمر الملك الفارسي (عزرا ٧/٢٥).

ثم يأتي القول الفصل من قبل الملك الفارسي المؤمن:

«وكل من لا يعمل شريعة إلهك وشريعة الملك فليقتض عليه عاجلاً إما بالموت أو بالنفي أو بفرامة المال أو بالحبس» (عزرا ٧/٢٦).

هل يمكن أن تكون هذه السلوكيات كلها إلا سلوكيات رجل مؤمن تقى، تمكن إله إسرائيل من قلبه وكيانه؟! لكن الأسفار العبرية المقدسة لا تقول ذلك تصریحاً.

وتاريخ الفرس آنذاك لا يشير إلى ذلك لا نصريحاً ولا تلميحاً.
ويبقى اللغز.

لغز إعادة بناء الهيكل، بلا إيضاح لنا، ولا لتلك الأجيال التي تقرأ
هذه الأسفار.

ثم يروى نحميا قصته مع الملك الفارسي أرتخشستا، والدور الذي لعبه
كل منهما من أجل «تعمير أورشليم» بعد خرابها وهدمها على أيدي
البابليين.

ويبدو أن التاريخ - كما يقال - يعيد نفسه. يقول نحميا:

«ولما سمع سنبلط الحوروني وطوبيا العبد العموني وجشم العربي (لما
سمعوا بإعادة بناء أورشليم) هزأوا بنا واحتقرونا وقالوا: ما هذا الأمر
الذي أنتم عاملون؟. أعلى الملك تتمردون؟. فأجبتهم وقلت لهم: إن إله
السماء يعطينا النجاح ونحن عبيده، نقوم ونبنى، وأما أنتم فليس لكم
نصيب ولا حق ولا ذكر في أورشليم» (نحميا ١٩/٢ - ٢٠).

ومع أن البيوسيين - أصحاب أورشليم وسكانها الأصليين - هم من
العرب، إلا أن النبي الإسرائيلي نحميا، يتجاهل التاريخ ويعمد إلى
تزويره بحجة أنه لا حق ولا ذكر - لغير الإسرائيليين - في أورشليم.
لعمري إنها نفس الفرية التي تتداول بعد ما يقرب من خمسة وعشرين
قرناً من الزمان.

فالإسرائيلي، هو الإسرائيلي، يزور التاريخ.

والعربي، هو العربي، يجهل التاريخ.

خمسة وعشرون قرناً من الزمان، لم تغير العقليتين: الإسرائيلية،
والعربية.

ولم يأبه الإسرائيليون العائدون من المنفى باعتراضات سائر الشعوب المقيمة في أورشليم وسائر الدول المجاورة، وواصلوا البناء.

وتمسك العرب - تمامًا كما يحدث في يومنا هذا - برفع شكواهم إلى القوة العظمى الوحيدة آنذاك، دولة الفرس، الحليف المطلق لليهود، والحامية لوجودهم، والداعمة لعودة يهود المنفى.

«ولما سمع سنبلط وطوبيا والعرب والعمونيون والأشددونيون أن أسوار أورشليم قد رُممت، والثغر ابتدأت تسد، غضبوا جدًا» (نحميا ٤/٧).

وموقف الشعوب والدول المجاورة لدولة اليهود لم يتغير منذ آلاف السنين، وروايات العهد القديم كأنها تقص علينا ما يحدث في القرن العشرين.

وظل نحميا يماطل العرب والشعوب الأخرى ويتبادل معهم الرسائل، حتى أتم بناء السور وأنهى تحصين أورشليم في اثنين وخمسين يومًا (عزرا ٦/١٥).

ويستمر نحميا في رواية ذكرياته عن إعادة تعمير أورشليم، وفيها نجد اختلافًا عما ذكره عزرا، ولا نعلم من فيهما أصدق من الآخر.

ثم سكن اليهود أورشليم «بالقرعة» واحد من بين كل عشرة، بينما سكن الباقون في سائر المدن (نحميا ١١/١).

ويمكن القول: إن إعادة بناء الهيكل بعد المنفى، وإعادة سكنى أورشليم، قد مثلت مرحلة «ولادة» جديدة للشعب الإسرائيلي، وكان شيئًا لم يحدث، فالعهد والوعد قد تجددوا للشعب، ومع ذلك، لم يتمكن القوم من الحفاظ على ما عاهدوا الرب عليه، وعادوا لارتكاب المحظورات، ولفعل المحرمات، وخرق الوصايا والشرائع. (نحميا ١٣/١٥ - ٢٩).

وخلاصة القول: إن إعادة بناء هيكل في أورشليم قد تمت، لكننا لا نعرف إذا ما كان البناء قد تم في نفس مكان هيكل سليمان أم غيره، بيد أننا نجد ما يفيد بأن الهيكل الجديد قد اختلفت أبعاده - بالزيادة - عن هيكل سليمان.

كما لا نعدم الإقرار العلني من قبل العائدين من المنفى بالمساهمة الأجنبية والدعم المادي والمعنوي من قبل دولة الفرس بملوكها المختلفين، والمساهمة في عملية البناء ذاتها من قبل غير اليهود، واستجلاب مواد البناء من ممالك وبلدان الأمم الأخرى.

ويحتل الإسكندر الأكبر اليوناني فلسطين عام ٣٣٢ ق.م، ويتودد اليهود إليه، ويستولي بطليموس الأول «سوتير» - بعد موت الإسكندر الأكبر - على أورشليم حوالي عام ٣١٠ ق.م حيث أسر كثيراً من سكانها ونقلهم إلى الإسكندرية، ليزحف عليها بعد ذلك ملك سوريا أنطيوخوس السلوقي اليوناني عام ٢٠٣ ق.م، ثم يستردها منه القائد البطلمي المصري «سكوباس» عام ١٩٩ ق.م. حدثت بعد ذلك فتنة كبيرة استطاع أن يستغلها الحاكم السوري أنطيوخوس إيسفانس، الذي زحف على أورشليم عام ١٧٠ ق.م ونهبها، ليأتي - بعد عامين فقط - قائده أبولونيوس ويقتحم الهيكل ويقيم فيه تمثال أنطيوخوس، ويبني بجواره مسرحاً للتمثيل، وهنا تحدث ثورة اليهود المكابيين الحشمونيين ضد اليونان بزعامة متتياهو، ويتم يهوذا المكابي هذه الثورة عام ١٦٥ ق.م، ويمكن من طرد اليونان من قلعة صهيون، إلا أن اليونان قد تمكنوا بقيادة أنطيوخوس السابع «سيديتاس» في عهد يوحنا هيرقانوس المكابي من العودة مرة أخرى.

ويزحف القيصر الروماني «بومبي» على فلسطين ويحتلها عام ٦٦ ق.م. وقتل من اليهود في القدس - حسب الروايات - ما يقرب من اثني عشر ألفاً، وقام اليهود بأنفسهم بتخريب وتحريق أورشليم، وتشتد الاضطرابات في أورشليم، ويزحف الحاكم السوري الروماني على المدينة ويدخل الهيكل وينهب ما بقى فيه من ذهب وفضة.

ولما زار يوليوس قيصر فلسطين سمح لليهود ببناء الأسوار المتهدمة في أورشليم، وأمر هيرودوس حاكماً عليها، ولم يدخر هيرودوس وسعاً في بناء الحصون ودعم المدينة، وأعاد زخرفة الهيكل، وعاش الملك المتهود «موناباز» وأمه المتهودة كذلك «هيلانة» في الجهة الجنوبية الشرقية من المدينة.

ولم يكف اليهود عن خلق المشاكل للرومان، ومن هنا قرر الإمبراطور الروماني «فسبازيان» التخلص منهم والقضاء عليهم، وأرسل ابنه «تيتوس» قائداً لجيش كبير، قام بتخريب أورشليم في ٨ / ١٢ / ٧٠م وتدمير الهيكل وإجلاء اليهود عنها، وهو «السبي الأخير» الذي ظل اليهود فيه حتى إعلان قيام دولتهم في فلسطين عام ١٩٤٨م.

وفي عام ١٣٦ حاول بقايا اليهود بقيادة «بركوكبا» القيام بثورة مسلحة ضد الرومان، لكن الإمبراطور الروماني هدران تمكن - بعد جولات من الصراع مع هؤلاء الشائرين - من محاصرة من بقى من اليهود في أورشليم، وهدم كل ما وجده في المدينة، وأقام مكان الهيكل معبداً للإله الوثني جوبتر - كبير آلهة الرومان - ونصب تمثالاً كبيراً لهذا الإله، وقرر تغيير اسم المدينة في محاولة لطمس كل ما يمكن أن يكون ذا علاقة باليهود، وجعل اسمها «إيليا كابيتولينا» ومنع اليهود من دخولها، بل

وجعل عقوبة الموت لمن يقدم منهم على ذلك، ثم سمح لهم بعد ذلك بزيارة المدينة يومًا واحدًا في السنة، والوقوف على جدار - غير معلوم الأصل والنشأة - بقى قائمًا من السور في الجزء الغربي من المدينة وهو الذي يسمى بحائط المبكى، ويسميه اليهود بالجدار الغربي، وظلوا - وما زالوا - يزورونه ويبكون عنده على خطاياهم وأثامهم هم وأسلافهم، تلك الخطايا التي دفعت الرب إلى تدمير المدينة، وتشتت من كان فيها من اليهود^(١).

ويزعم البعض من اليهود أن هذا الجدار ليس إلا بقية من سور داود، وقال البعض: إنه جزء من حائط سليمان، ونسبه آخرون إلى المكابيين اليهود أو إلى هيرودس اليهودي^(٢)، إلا أن الحفائر الإسرائيلية التي جرت - وما زالت - منذ احتلال القدس عام ١٩٦٧م لم تسفر عما يمكن أن يدعم هذه المزاعم على الإطلاق.

ويرتفع «حائط المبكى» - الذي اشتهر بهذا الاسم - عن سطح الأرض بحوالي ثمانية عشر مترًا، الستة الأولى منها مبنية بحجارة مستطيلة ضخمة هي من نفس نوع أحجار أساسات هذا السور، يضاف إليها من فوق أربعة عشر سطرًا من حجارة أصغر يبدو أنها جزء من عملية «تعلية» للحائط، وترجع إلى القرن الثاني عشر الميلادي وما بعده.

أما الأساس المظموور للسور تحت الأرض، فهو مكون من تسعة عشر سطرًا من الأحجار المستطيلة الضخمة، وبالإمكان رؤية جزء من هذا

(١) انظر: مائير بن دوف، الإنسان والحجر في أورشليم، مرجع سبق ذكره، ص: ٥٤، ٥٥، ظفر الإسلام خان، تاريخ فلسطين القديم، ص: ٩٢، ٩٣.

(٢) حسن ظاظا، أبحاث في الفكر اليهودي، مرجع سبق ذكره، ص: ٣٧، ٣٨.

الأساس من الكهف الملاصق للحائط من جهة الشمال، أما بقية السور من هذه الجهة الغربية فقد اندثرت، ولم تبق سوى نتوءات تبرز من مسافة إلى أخرى، وهناك اثنا عشر مترًا من الضلع الجنوبي للسور ما تزال بارزة، وهي بقية العقد المقوس الذي كانت تعلوه القنطرة من جبل صهيون إلى الهيكل^(١).

ولكن، ماذا عن قبة الصخرة، أو ما يسمى بالصخرة المقدسة؟! لا تشير أسفار العهد القديم إلى أية صخرة مقدسة، تقول رواية سفر صموئيل الثاني (١٨/٢٤) فيما يتعلق بمذبح الرب الذي أقامه داود: «فجاء جاد في ذلك اليوم إلى داود وقال له: اصعد وأقم للرب مذبحًا في بيدر أرونة البيوسى، فصعد داود حسب كلام جاد كما أمر الرب». وجاد هو رائى داود ونبيه (صموئيل الثاني ١١/٢٤).

وهو الذى حدد مكان المذبح، وإن كانت هناك عبارة «كما أمر الرب»، مع أننا لم نجد هذا الأمر الإلهي ولم نعثر عليه من قبل، وأسلوب النصوص المقدسة في هذا واضح، فقد كان الرب يصدر أوامره إلى النبي، ثم يعيد النبي إصدار الأوامر مرة أخرى للملك أو الشعب، فنحن هنا نفتقد «النص الأصلي» للأمر الإلهي بتحديد مكان المذبح في بيدر أرونة البيوسى.

كما أن العبارة برمتها تشير إلى إقامة مذبح، لا إلى بناء هيكل وقصر، ولا نجد أية إشارة لصخرة بعينها.

لكن الروايات التلمودية تقول: إن داود جعل من الصخرة التى على

(١) المرجع السابق، ص: ٣٨.

الهضبة مذبحاً للرب، وراحت تحيك الأساطير حولها فليل (توسفتا - يوما/ ٨٤، ٨): إن الرب قد بدأ الخلق من هذه الصخرة. وقال الحبر اليعازر البابلي: إن الصخرة هي أصل خلق الأرض، وإن صهيون هو سرّة العالم (التلمود البابلي - يوما/ ٥٤).

وجاء في أحد كتب التصوف اليهودي - وهو كتاب «زهر» - أن يعقوب قد نام على الصخرة وهو منطلق من بيت إسحق أبيه، مع أن رواية سفر التكوين (٢٨/ ١٦ - ١٧) تخبرنا أنه قد نام في «بيت إيل» بالقرب من نابلس.

ويشير التلمود إلى أن هذه الصخرة المقدسة ترتفع عن سطح الأرض ثلاثة أصابع فقط (يوما/ ٨٥ - ٣، ٤؛ توسفتا ٦/ ٨٣)، ويذكر ابن ميمون في كتابه «طقوس يوم الغفران» نفس الشيء المذكور في التلمود.

لكن الصخرة الموجودة حالياً ترتفع نحو متر كامل عن سطح الأرض، ومحيطها يصل إلى عشرة أمتار، وتحتها فجوة هي بقية مغارة قديمة، عمقها أكثر من متر ونصف، وتبدو الصخرة من فوقها وكأنها معلقة بين السماء والأرض، وبين الصخرة وقاع المغارة دعامة من الخشب حتى لا تنهار.

وقد شكك كثيرون في أن تكون هذه الصخرة التلمودية هي الصخرة الموجودة حالياً في الحرم الشريف، ونحن بوسعنا أن نتشكك كذلك، بل وأن نسأل أنفسنا، ونسأل اليهود أيضاً، عما يمكن أن يكون قد فعله بها باختصار وأنطيوخوس بيفانس وتيتوس وفسبازيان وهديران والصلبيون^(١).

(١) جرائم الصليبيين في القدس والهيكل مفصلة في: ستيفن رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة: السيد البازي العربي، ط، بيروت، ١٩٦٧، ص: ٣٩٣ وما بعدها.

وغيرهم ممن كروا على أورشليم، وخربوا ودمروا كل ما فيها^(١). ولعل هذا كله يطل الزعم اليهودي القائل: إن مسجد قبة الصخرة، قد قام مقام الهيكل^(٢).

وما دمنا في هذا الصدد قد تحدثنا عن الهيكل، أو «الهيكل» - بتعبير أدق - التي تمت إقامتها، وقمنا بوصفها تفصيلياً اعتماداً على نصوص العهد القديم، وشهادات الباحثين، فمن المتعمد للفائدة هنا أن نوضح حقيقة ما يردده اليهود من أن الحرم الشريف قد أقيم مقام الهيكل.

فمن حيث المساحة، هناك دراسة للأثرى الفرنسى «دى سولسى» فى كتابه «تاريخ الفن اليهودى»، يشير فيها إلى أن مقياس الحرم الإسلامى الشريف هو الضلع الشرقى لسور الحرم بطول ٣٤٨ متراً، والضلع الجنوبى بطول ٢٢٥ متراً، أما الضلع الغربى فيمتد فى خط مستقيم وبزاوية متعرجة، وبهذا يصبح الضلع الشمالى من السور أطول بكثير من الجنوبى، وعليه فإن مساحة الحرم الشريف أكبر من ضعف مساحة جبل الهيكل داخل أسوار سليمان أو نحميا أو هيرودس.

كما أن الحرم الشريف مستطيل يأخذ اتجاهه من الشمال إلى الجنوب فى اتجاه قبلة مكة المكرمة، بينما يتجه هيكل سليمان - برغم استطالته - الاتجاه من الغرب إلى الشرق^(٣).

ومن ناحية أخرى، فإن أسوار مدينة القدس التاريخية الشهيرة، تجعل

(١) المزيد حول هذه الصخرة فى: حسن ظاظا، أبحاث فى الفكر اليهودى، مرجع سبق ذكره، ص: ٢٦: ٢٨.

(٢) انظر: ماثيو بن دوف، مرجع سبق ذكره، ص: ٣٨.

(٣) حسن ظاظا، الصهيونية العالمية وإسرائيل، مرجع سبق ذكره، ص: ١١٦، ١١٧.

من هذه المدينة مدينة مربعة، طول كل ضلع منها حوالى كيلو متر تقريباً، وتحتوى على أبواب، وفى وسطها يوجد مسجد عمر وقبة الصخرة فى هذا الحرم المقدس، والذي يسمى كله بالمسجد الأقصى الآن، وعلى بعد نصف كيلو متر تقريباً غرب هذا المسجد توجد كنيسة القيامة التى يعتقد المسيحيون أن المسيح قد قام بعد صلبه ورفع إلى السماء من هذه البقعة، وقد بنى الإمبراطور قسطنطين هذه الكنيسة فى هذا الموضع.

وتعتبر هذه المنطقة بالفعل منطقة قبور، إذ اكتشفت بها قبور عديدة تعتبر أكبر شاهد على أن ادعاء اليهود أن أرض الحرم وأرض كنيسة القيامة تابعة لمدينة داود وسليمان ادعاء باطل، وذلك لأن الشريعة الإسرائيلية تحرم دفن الموتى فى المدينة المقدسة، وحتى ملوك إسرائيل القدامى: داود وأبشالوم وسليمان... إلخ، كلهم مدفونون خارج الأسوار.

وليس من المعقول - على الإطلاق - أن يدفن ملوك إسرائيل خارج الأسوار ويسمح بدفن أشخاص كانوا يعتبرون معاقبين ومجرمين داخل الأسوار.

وبالتالى، فمن المؤكد أن الأسوار الشرقية لعاصمة داود وسليمان كانت غرب كنيسة القيامة.

وبالتالى - أيضاً - يكون كل الجزء العربى من القدس، ابتداءً من بيت بنى نسيه (سدنة كنيسة القيامة) إلى آخر باب الأسود المشرف على وادى سباط فى أقصى الشرق من المدينة، كل هذا كان فلسطينياً منذ أقدم العصور، ولم تطلوه قدم يهودية، ولم يخضع للقضاء اليهودى إطلاقاً.

* * *

الفصل الرابع
مكانة أورشليم
عند آباء إسرائيل وملوكهم

من المثير للانتباه حقًا، ألا نجد ذكرًا لمدينة أورشليم - التي يتمسك بها الإسرائيليون أكثر من دينهم نفسه - في الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم والمسماة بالتوراة، والتي تعترف بها كل الفرق والطوائف اليهودية، حيث تبقى بقية أجزاء العهد القديم البالغة أربعة وثلاثين سفرًا محل اختلاف، لا بين اليهود فحسب، بل بين المسيحيين في العالم بأسره كذلك.

لم يذكر «الآباء» الأوائل للإسرائيليين القدس، فلم تكن هذه المدينة تعنى إبراهيم (عليه السلام) من قريب أو بعيد، ولم يذكرها على الإطلاق ابنه إسحق ولا حفيده يعقوب ولا الأسباط الإثنا عشر.

لم يذكرها كذلك - وربما لم يعرفها - موسى (عليه السلام)، ولا الخارجون معه من مصر، ولا حتى يشوع الذي بدأ الغزو الإسرائيلي لفلسطين.

ومع أن ملك أورشليم - أدوني صادق - قد تحالف مع ملوك آخرين، حيث توجهت قوات التحالف الأموري إلى جبعون والجلجال في طريقها لمحاربة قوات الغزو الإسرائيلي بعدما شاع عنهم ما ارتكبه من فظائع في حق المدن الفلسطينية التي حاربوها، ومع أن يشوع قد تمكن من هزيمة قوات التحالف، بل وقتل يشوع ملوك التحالف الخمسة «وعلقهم على خمس خشب وبقوا معلقين على الخشب حتى المساء» (يشوع ٢٦/١٠)، مع كل هذا، لم يخطر ببال يشوع احتلال أورشليم وتركها لمن بقي من أهلها بعد الهزيمة، «إذ رآها غير ذات قيمة بالنسبة له - ولمن معه من

قوات غازية - من الناحية الاستراتيجية^(١)، وظلت أورشليم خلال قرنين ونصف القرن من الزمان - هي الفترة الفاصلة بين يوشع وداود - في أيدي البابليين، على نحو ما يقر ذلك الباحثون بلا اختلاف^(٢).

ولم تكن لأورشليم أية خصوصية أو قداسة في عصر القضاة، وهو العصر الفاصل بين يشوع والملكية، ودليل ذلك ما جاء في سفر القضاة: «وحارب بنو يهوذا أورشليم وأخذوها وضربوها بحد السيف، وأشعلوا المدينة بالنار» (٨/١).

فلو أن ثمة تقديس أو حتى احترام لأورشليم، ما وصل الأمر إلى إهلاك من فيها، وحرقتها بالنار.

وفي عصر داود - كما تروى أسفار الكتاب المقدس - لم تكن للمدينة في نفس داود وأولاده أية قداسة أو مهابة.

فسفر صموئيل الثاني يخبرنا أن داود قد زنا مع زوجة أوريا الحثي في أورشليم (١/١١ - ٢٦).

وأمثون بن داود قد سار على سنة أبيه في الزنا، وزنا بأخته ثامار في أورشليم كذلك (١٣/١ - ١٥).

وأبشالوم بن داود يؤكد عدم قداسة أورشليم ويدنسها بالزنا أيضاً، وعلى مرأى ومسمع من كل بني إسرائيل، حيث زنا بسراري أبيه، على نحو ما تم تفصيله في نفس السفر ١٥/١٦ - ٢٣.

(١) موسى برلمان وتيدي كوليك، مرجع سبق ذكره، ص: ٢٢.

(٢) المرجع السابق.

وتأمر أبسالوم بن داود لقتل أخيه أمنون في أورشليم (٢٨/١٣ - ٣٥) دون أن تكون للمدينة - آنذاك - أية حرمة أو مكانة في النفس الإسرائيلية.

داود وأورشليم

كانت أورشليم في زمن داود أهم مدن الداخل من الناحية الاستراتيجية، فهي تتحكم في الطريق الرئيس بين الشمال والجنوب، وتشكل «الوصلة» بينهما، وكان فشل بني إسرائيل - حتى ذلك الوقت - في الاستيلاء عليها سبباً من أهم الأسباب التي أدت إلى ظهور تجمعين منفصلين من أسباط بني إسرائيل، ومن ثم قيام مملكتين منفصلتين: إسرائيل شمالاً، ويهوذا جنوباً، ولم تكن أورشليم آنذاك تابعة أو ملحقة بأي من هاتين المملكتين، بل كانت أرضاً محايدة^(١).

ويذكر أنه بعد موت شاول - أول ملك في تاريخ بني إسرائيل - انقسم القوم إلى فريقين، الفريق الأول قام بتنصيب «إشبوشت بن شاول» ملكاً على كل إسرائيل، بينما قام الفريق الثاني - وهم سبط يهوذا - باختيار داود وتنصيبه ملكاً في حبرون (صموئيل الثاني ٨/٢ - ١١)، ولم يكن اختيار داود هنا، والذي تم بواسطة سبط يهوذا، ذا صبغة مقدسة، فهو لم يعين من قبل أي نبي، ودليل ذلك هو إجماع الأسباط الأخرى على تعيين «إشبوشت» بن شاول^(١).

ونشب صراع سياسي بين بيت شاول وبيت داود: «وكانت الحرب طويلة بين بيت شاول وبيت داود، وكان داود يذهب يتقوى وبيت شاول يذهب يضعف» (صموئيل الثاني ١/٣).

(١) رجاء جارودي، فلسطين أرض الرسالات، مرجع سبق ذكره، ص: ١٢٢.

واستمر الصراع الذى استطاعت «الاجتياالات الداخلية» أن تحسمه لصالح داود، حيث تم اغتيال «إشيوشت»، وجاء جميع أسباط إسرائيل إلى داود إلى حبرون وتم تنصيبه ومسحه ملكاً من قبل شيوخ إسرائيل (صموئيل الثانى ١/٥ - ٣).

وتخبرنا روايات سفر صموئيل الثانى مباشرة بعد تنصيب داود ملكاً على كل إسرائيل بتوجهه ورجاله «إلى أورشليم إلى اليوسيين سكان الأرض» لاحتلال المدينة.

وقضية احتلال داود لأورشليم لا تحظى بالاهتمام اللائق بها إذا قارنا تفاصيلها مع ما يزعمه الإسرائيليون من مكانة للمدينة فى نفوسهم وتاريخهم، ومن ثم ينبغى ذكر هذه التفاصيل للوقوف على دقائقها وما تعكسه لنا من ملاحظات.

«كان داود ابن ثلاثين سنة حين ملك، ملك أربعين سنة، فى حبرون ملك على يهوذا سبع سنين وستة أشهر، وفى أورشليم ملك ثلاثاً وثلاثين سنة على جميع إسرائيل ويهوذا، وذهب الملك ورجاله إلى أورشليم إلى اليوسيين سكان الأرض، فكلّموا داود قائلين: لا تدخل إلى هنا ما لم تنزع العميان والعرج، أى لا يدخل داود إلى هنا، وأخذ داود حصن صهيون، هى مدينة داود، وقال داود فى ذلك اليوم: إن الذى يضرب اليوسيين ويبلغ إلى القناة والعرج والعمى المبغضين من نفس داود، لذلك يقولون لا يدخل البيت أعمى أو أعرج، وأقام داود فى الحصن وسماه مدينة داود، وبنى داود مستديراً من القلعة فداخلاً، وكان داود يتزايد متعظماً والرب إله الجنوب معه» (صموئيل الثانى ٤/٥ - ١٠).

النص السابق على نحو ما نرى - وهو الوحيد الوارد حول احتلال داود لأورشليم - غامض تمامًا.

فهو لا يفيد غزو المدينة أو احتلالها على الإطلاق، وإنما يشير وحسب إلى إقامة داود في حصن صهيون.

وليس ثمة قتال بين داود ورجاله من جانب، واليبوسيين سكان المدينة من جانب آخر.

ولا نجد أثرًا لتدخل «إله الجنود» في تلك الواقعة، على عكس تدخلاته المباشرة، وتخطيطه وقيادته لمعارك يشوع.

يقول الإسرائيليان موسى برلمان وتيدي كوليك: «لا يتضح لنا من مرويّات العهد القديم وأحداثه كيف تغلب داود على اليبوسيين سكان أورشليم في بداية ملكه، وربما قبل أن يمسح ملكًا على كل إسرائيل، أو بعد أن حسم أمره مع الفلسطينيين، لم يستطع كثير من العلماء حل تلك المسألة، وهناك حيرة كبيرة بشأن خطة احتلال المدينة»^(١).

وتبقى قضية القناة والعرج والعمى محيرة لمفسري وعلماء العهد القديم.

لم نلاحظ ضمن ملابس الغزو للمدينة إذن ما هو معهود في تلك المعارك المقدسة التي خاضها الإسرائيليون من قبل، فليس ثمة أمر إلهي، ولا وعد رباني بالنصر، ولا تخطيط من قبل إله إسرائيل، ولا طقوس هنا تتعلق بالعمليات العسكرية.

(١) مرجع سبق ذكره، ص: ٢٧.

والأكثر من ذلك أنه بعد الاستيلاء على المدينة، لم يقيم داود ومن معه - كعادة الإسرائيليين آنذاك - بذبح السكان الأصليين وإبادتهم، بل حتى ولا بطردهم، بل أبقاهم، وبذل جهداً خاصاً في كسبهم إلى جانبه، وفي الوقت نفسه، وجه اهتمامه - على صعيد عسكري - بترميم أسوار المدينة، واحتلال قلعة «صهيون»، وأقام ثكنات لرجاله، وبنى قصراً لنفسه، ثم أتى بعد ذلك «بتسابوت العهد» الذي كان أثمن أثر ديني يملكه الإسرائيليون ويعد رمز وحدتهم، وجعله في حماية عرشه وجيشه، رامياً من وراء ذلك إلى دمج هويته كملك بهوية الشعب وديانته، وأميناً للعرش، حتى يظل في سلالته من بعده^(١).

وهنا يعن لنا سؤال: لماذا اختار داود مدينة اليبوسيين - أورشليم - لينقل إليها عاصمة ملكه من حيرون؟!

هل ثمة توجيه إلهي، وأمر سماوي، يتعلق بقداسة المدينة ومكانتها عند الرب وعند الشعب؟

إن العوامل الكامنة وراء اختيار داود لأورشليم كي تكون عاصمة مملكته الموحدة كانت عوامل سياسية واستراتيجية بحتة.

فمن الناحية السياسية، كان استمرار داود في قيادة شعبه من مدينة حيرون «الخليل» التي ترتبط بأسباط الجنوب من شأنه أن يوحى بانحيازه الواضح إلى مملكته السابقة - مملكة يهوذا - قبل توحيد الشمال والجنوب، ومن ثم كان عليه اختيار «مدينة محايدة»، لا تنتمي للشمال أو الجنوب،

(١) Paul Johnson, A History of the Jews, N. Y., Harper & Row, 1988, pp. 56 - 57.

وفي نفس الوقت كانت قريبة من ديار سبط يهوذا، عشيرة داود، لكنها ليست من نصيب أي سبط من الأسباط^(١)، وفقًا «لتقسيم الأراضي» الذي قام به يشوع إثر غزو فلسطين وأرض كنعان.

أما من الناحية الاستراتيجية، فإن أورشليم وعرة المسالك بالنسبة للقادمين من الأردن أو البحر أو الشمال، وهي حصينة غير مكشوفة للغزاة، وكانت تقع في وسط عشائر فلسطينية قديمة، يبدو أنهم كانوا يميلون إلى المسألة أكثر من أهل الشمال^(٢)، لقد كانت أورشليم ذات تحصينات منيعة، وتقع في مكان مرتفع وسط التلال، مما يحقق لها الأمن من أي اعتداء مفاجئ يقوم به الفلسطينيون أو قبائل سيناء والنقب، أو أي من المملكتين الجديديتين: مملكة عمون ومملكة موآب على الضفة الشرقية لنهر الأردن^(٣)، ويؤكد لنا تلك الأهمية الاستراتيجية ذلك التركيز من قبل داود على الاستيلاء على جبل أو حصن صهيون وكانت فيه قلعة أمامية لليبوسيين يدافعون منها عن أورشليم.

ولما كان داود قد استولى على أورشليم بجنوده هو، فقد أصبحت المدينة - وفقًا لعادات المنطقة - من ممتلكاته الشخصية، ويعكس هذا المفهوم تغيير اسم المدينة إلى مدينة داود (صموئيل الثاني ٩/٥)، وهناك من يرجع هذا الانتقال السلمي - دون حروب أو معارك - للحكم من أيدي اليبوسيين في أورشليم إلى داود والإسرائيليين، إنما كان بمثابة

(١) دروس في التاريخ للمدارس الحكومية، ط١، إعداد: وحدة المناهج الدراسية بوزارة التعليم والثقافة في إسرائيل (بالعبرية)، ص: ١٤.

(٢) حسن ظاظا، أبحاث في الفكر اليهودي، مرجع سبق ذكره، ص: ٢٦.

(٣) كارين أرمسترونج، مرجع سبق ذكره، ص: ٨٠.

«انقلاب عسكري» تمكن داود وجنوده من خلاله من احتلال مكان الملك اليوسى وحاشيته المقرية، دون المساس على الإطلاق لا بالمدينة ولا بسكانها، على النحو المألوف فى تاريخ الغزوات الإسرائيلية، وربما مهد لذلك أيضاً ما تشير إليه الفقرات العديدة من الكتاب المقدس من تعايش سلمى بين اليوسيين والإسرائيليين منذ زمن:

«وأما اليوسيون الساكنون فى أورشليم، فلم يقدر بنو يهوذا على طردهم، فسكن اليوسيون مع بنى يهوذا فى أورشليم إلى هذا اليوم» (يشوع ١٥/٦٣).

«وبنو بنيامين لم يطردوا اليوسيين سكان أورشليم، فسكن اليوسيون مع بنى بنيامين فى أورشليم إلى هذا اليوم» (قضاة ١/٢١).

فلولا أن ثمة علاقة بين الغازين الإسرائيليين واليوسيين سكان أورشليم الأصليين، ما التزم داود العدل والرحمة تجاه المغلوبين، وهو «رجل الدماء» (صموئيل الثانى ١٦/٧).

كما لم نسمع - على كثرة تفاصيل العهد القديم مع الأمم الوثنية - عن تدخل من جانب داود، بأى شكل من الأشكال - فى الدين المحلى للسكان، بل إن الأفكار الدينية والعقائد التى تحمس لها اليوسيون قد اندرجت فى سياق تطوير ديانة «يهوه» إله إسرائيل فى أورشليم.

لقد شهدت «مدينة داود» الجديدة تفاعلاً خلاقاً بين التقاليد اليوسية والتقاليد الإسرائيلية، وانعكس ذلك على تلك الاستجابة السخية من قبل أرونة اليوسى (ولعله آخر ملوك اليوسيين فى المنطقة) لمنح «بيدره» لداود، كى يبنى مكانه مذبحاً لإله إسرائيل، بل ودعا أرونة لداود وباركه:

«وقال أرونه (لداود) لماذا جاء سيدى الملك إلى عبده، فقال داود: لأشترى منك البيدر لكى أبني مذبحاً للرب، فتكف الضريبة (الوباء الذى أنزله الرب بشعبه إسرائيل)، فقال أرونه لداود: فليأخذه سيدى الملك ويصعد ما يحسن فى عينيه. انظر: البقر للمحرقة والنواج وأدوات البقر حطباً، الكل دفعه أرونه المالك إلى الملك، وقال أرونه للملك: الرب إلهك يرضى عنك. فقال الملك لأرونه: لا، بل أشتري منك بثمان ولا أصعد للرب إلهى محرقات مجانية» (صموئيل الثانى ٢٤/٢١ - ٢٤).

هذا التعامل اللين بين الملك داود وبين اليبوسى مالك البيدر، ربما يفسر لنا ذلك «الاحتلال السلمى» لأورشليم، كما يعكس لنا التفاعل بين المحتلين وسكان البلاد.

وبما لا شك فيه، أن داود كان بحاجة لجهود اليبوسيين فى المدينة وخبرتهم فى الشؤون المالية والسياسية، إذ لم يكن الغازون يتمتعون بالخبرة اللازمة لإدارة شؤون المملكة التى تعتبر نظاماً سياسياً جديداً غير مألوف ولا معهود فى التاريخ الإسرائيلى الذى لم يشهد من النظام الملكى سوى عصر شاول المضطرب.

وكان داود قد أخذ من نساء أورشليم زوجات له - وأبرزهن بتشعع زوج أوريا الحشى اليبوسى (صموئيل الثانى ٣/١١ - ٢٦)، التى أنجب منها ابناً.

وقصة زواج داود من هذه المرأة، والتخلص من زوجها - اليبوسى - أحد جنود جيش داود، لتشير إلى بقاء العنصر اليبوسى ومشاركته فى شؤون المملكة الداودية الجديدة، ولو كان هذا العنصر محل ريبة أو شك،

ما جعله داود فى الجيش.

ومعنى ما سبق، أن ابن داود، كان نصفه - من ناحية الأب - إسرائيلياً، ونصفه الآخر - من ناحية الأم - حثى ييوسى، وإذا أخذنا بالقوانين اليهودية، فإن الابن تابع لأمه، ومن ثم، فابن داود والمسمى «يديدا» محبوب الإله يهوه» ييوسى تماماً.

وهناك من يرى^(١) أن النبی ناثان - المعاصر لداود - (صموئيل الثانى ١٢/١ - ١٥) ربما كان ييوسياً، بل ومن المحتمل أنه كان مستشاراً للملك اليبوسى، وعليه يمكن أن يكون قد لعب دور «الوسيط» بين داود ورعيته اليبوسية، ونathan هو الذى عثف داود إثر مقتل أوربا الحثى اليبوسى، لا لسبب أخلاقى واضح، وإنما لأن مثل هذا التصرف من جانب داود من شأنه أن يضر بالعلاقات الإسرائيلية - اليبوسية.

وحجة هذا الرأى تتلخص فى أن الكتاب المقدس يعمد دائماً إلى ذكر أصول جميع أنبياء بنى إسرائيل، إلا فى حالة هذا النبی، الذى حتى لم يذكر الكتاب المقدس اسم أبيه.

ويذهب أصحاب هذا الرأى - كذلك - إلى أن صادوق - رئيس كهنة أورشليم - كان من اليبوسيين، استناداً إلى أن الاسم «صادوق» ييوسى، الأمر الذى دفع كاتب سفر أخبار الأيام إلى الإمعان فى تأصيل نسب هذا الكاهن - الذى حرص جميع كهنة إسرائيل فيما بعد على الانتساب إليه - وربطه بنسل هارون، وإن كانت سلسلة النسب المذكورة بشأنه أطول بخمسة أجيال من عدد الأجيال التى من المفترض أنها قد انصرفت ما بين

(١) كارين أرمسترونج، مرجع سبق ذكره، ص: ٨٤.

داود وهارون (أخبار الأيام الأول ١/٦ - ١٥).

وبالحكمة السياسية التي اتسمت بها شخصية داود، وفي خطوة جريئة لتوطيد ملكه من ناحية، ولتهويد أورشليم من ناحية أخرى، استقدم داود من المدينة الكنعانية «قريات يعازيم» تابوت العهد الذي أخذه من الفلسطينيين، وأودعه في أورشليم، ليجعل من هذه المدينة - رمزياً - مركزاً للرابطة بين الأسباط الاثني عشر، وهو يربطهم بماضيهم المقدس^(١)، وهذا التصرف - في نفس الوقت - يرضى سكان المملكة الشمالية الذين كانوا لا يزالون ينظرون إلى داود بعين الريبة والشك. فالتابوت يضم أقدس ما لبنى إسرائيل، ومن شأنه - في نظر داود - أن يضيف الشرعية على حكمه، وفي الوقت ذاته، يغير من طابع أورشليم البيوسي، بل ويقضى على البقية الباقية لأي أثر ييوسي عقدي.

وكان نقل التابوت - الذي يفيد ضمناً موافقة الرب على الإقامة في مدينة داود - دليلاً واضحاً على أن الرب قد اختار داود ليكون ملكاً على إسرائيل، وعلى هذا النحو، أصبح اختيار الإله «يهوه» لصهيون «كمحل إقامة دائم» له، مسألة ترتبط بشدة باختيار بيت داود، ويتجلى ذلك في مناقشة داود لتلك القضية مع النبي ناثان، حيث عرض داود فكرة بناء بيت للرب الذي يعتمد عليه في حكمه، لكن مشيئة الرب لم تتفق مع مشيئة الملك داود، فالرب قد أخبر النبي ناثان بحياة التجوال التي قضاها، وعدم رغبته في بناء بيت لنفسه، لكنه أعرب عن رغبته في بناء بيت لداود، أي أسرة حاكمة خالدة أبد الدهر.

(١) رجاء جاروسى، مرجع سبق ذكره، ص: ١٢٣.

«وكان لما سكن الملك في بيته وأراحه الرب من كل الجهات من جميع أعدائه أن الملك قال لثان النبي انظر، إني ساكن في بيت من أرز وتابوت الله ساكن داخل الشقق، فقال ثان للملك: اذهب افعل كل ما بقلبك؛ لأن الرب معك، وفي تلك الليلة كان كلام الرب إلى ثان قائلاً: اذهب وقل لعبدي داود هكذا قال الرب، أنت تبنى لي بيتاً لسكنائى؛ لأنى لم أسكن في بيت منذ يوم أصعدت بنى إسرائيل من مصر إلى هذا اليوم بل كنت أسير في خيمة وفي مسكن، في كل ما سرت مع جميع بنى إسرائيل هل تكلمت بكلمة إلى أحد قضاة إسرائيل الذين أمرتهم أن يراعوا شعبى إسرائيل قائلاً: لماذا لم تبناوا لي بيتاً من الأرز، والآن فهكذا تقول لعبدي داود، هكذا قال رب الجنود: أنا أخذتك من المربض من وراء الغنم لتكون رئيساً على شعبى إسرائيل، وكنت معك حيثما توجهت وقرضت جميع أعدائك من أمامك وعملت لك اسماً عظيماً كاسم العظماء الذين في الأرض، وعينت مكاناً لشعبى إسرائيل وغرسته فسكن في مكانه ولا يضطرب بعد ولا يعود بنو الإثم يذلونه كما في الأول، ومنذ يوم أقمت فيه قضاة على شعبى إسرائيل، وقد أرحمتك من جميع أعدائك، والرب يخبرك أن الرب يصنع لك بيتاً، متى كملت أيامك واضطجعت مع آبائك أقيم بعدك نسلك الذى يخرج من أحشائك وأثبت مملكته، هو يبنى لاسمى وأنا أثبت كرسى مملكته إلى الأبد»

(صموئيل الثانى ١/٧ - ١٣).

ومات داود دون أن يبنى بيتاً للرب في أورشليم، وجاء سليمان ليرث ملك أبيه - وهو ابن اليسوسية بتشيع - مع أنه لم يكن الاحق بالميراث

وفقاً للتقاليد السائدة آنذاك بين بني إسرائيل، لكننا وفقاً لما اعتدنا من حيل بموجبها يسلب الأخ حق أخيه، وعلى نحو ما تمكن يعقوب من التحايل والاستيلاء على حقوق أخيه عيسو، وشرف «البكورية» وبركة الرب، على نحو ذلك كله، وصل سليمان إلى كرسى الحكم بمساعدة أمه وحيلها (تماماً كما فعل يعقوب بمعاونة أمه)، وأصبح سليمان ملكاً على بني إسرائيل جميعاً.

وبدأ سليمان عهده بتثبيت دعائم ملكه بالقضاء - أولاً وقبل كل شيء - على خصومه، وأول الخصوم أخوه «أدونيا»: يقول سليمان حالفاً بالرب: «والآن حى هو الرب الذى ثبتنى وأجلسنى على كرسى داود أبى والذى صنع لى بيتاً كما تكلم إنه اليوم يُقتل أدونيا» (سفر الملوك الأول ٢٣/٢ - ٢٤)، كما تم التخلص من شمعى وقتله بعد «تحدد إقامته» فى بيته بأورشليم لثلاث سنوات كاملة (الملوك الأول ٣٦/٢ - ٤٥)، وكان من الطبيعى أن يتخلص سليمان كذلك من أى سلطة دينية معارضة، فكان التخلص من أيارثار الكاهن وعزله عن الكهانة (الملوك الأول ٢٧/٢)، والفتك ببوآب، الذى شكل ثقلًا عسكريًا مناوئًا، وذلك فى خيمة الرب (الملوك الأول ٢٩/٢ - ٣٥).

وكانت الخطوة التالية لتثبيت ملك سليمان، هى مصاهرة الملك لكثير من حكام وملوك «القوى العظمى» آنئذ، وبدأ بمصاهرة فرعون مصر، وأتى بابتنة فرعون إلى «مدينة داود» (الملوك الأول ١/٣)، ناهيك عن مصاهرة الموابيين والعمونيين والأدوميين والصيدونيين والحثيين، وكلها زيجات نهى إله إسرائيل عنها، لكن يبدو أن العامل السياسى هنا كان

أقوى من الوازع الدينى، على نحو ما تصوره لنا نصوص العهد القديم.
(الملوك الأول ١/١١ - ٢).

وكى يتم صبغ الملك السليمانى بالصبغة الدينية كاملة، كان لابد
لسليمان بعد الخطوات السابقة أن يلجأ إلى ضمان «الشرعية اليهودية»
لحكمه، ومن ثم كان بناء بيت الرب، تعظيماً للمملكة، وضماناً
لرسوخها.

ولتحقيق ذلك، استعان سليمان بحيرام ملك صور، الذى أرسل له
العمال والمعدات والمؤن لبناء بيت الرب فى أورشليم، والحديث عن هذا
البيت له مقامه الخاص فى ثنايا هذه الدراسة.

وكانت مراسم تكريس البيت وتدشينه قد بدأت بنقل تابوت عهد الرب
من صهيون (مدينة داود) إلى أورشليم فى حفل مهيب حضره شيوخ
إسرائيل ورؤوس الأسباط ورؤوس الآباء من بنى إسرائيل (الملوك الأول
١/٨ - ٢)، وكان قبول الرب للسكنى فى هذا البيت صريحاً:

«وقال له (لسليمان) الرب: قد سمعت صلاتك وتضرعت الذى
تضرعت به أمامى، قدست هذا البيت الذى بنيت له لأجل وضع اسمى فيه
إلى الأبد، وتكون عيناي وقلبي هناك، كل الأيام»

(الملوك الأول ٣/٩).

وهناك ملاحظة يجدر أن نشير إليها ونحن بصدد النص السابق، وهى
أن تقديس الرب هنا لم يكن لأورشليم ذاتها، بل للبيت الذى بناه له
سليمان، فحتى هذه الملاحظة لم تكن أورشليم ذات أهمية خاصة، لا عند

الرب، ولا عند الشعب، ولا عند الملك.

ولا نجد - حتى نهاية عصر سليمان - أى مظاهر تبجيل أو تقديس لأورشليم، أو حتى للبيت الذى بناه سليمان للرب، إذ انشغل سليمان بعد ذلك بتوسيع ملكه (الملوك الأول ١٠)، وتوسيع دائرة مملكته من النساء (الملوك الأول ١١/١ - ١٣) ثم بنشوب بعض المعارك.

(الملوك الأول ١٤/١١ - ٢٥).

كما واجه سليمان بعض حركات تمرد من قبل عبيده، وتجدد ذلك فى «يربعام بن ناباط الإفرائمي» (الملوك الأول ٢٦/١١) الذى لم يتمكن سليمان من قتله، حيث هرب يربعام إلى مصر فى عهد الملك شيشق، وعاش فيها حتى وفاة سليمان (الملوك الأول ١١/٤٠ - ٤٣).

وعاد يربعام من مصر بعد وفاة سليمان، وذهب إلى شكيم، وجمع معه الشعب وتوجه إلى الملك رحبعام بن سليمان ليعرض مطالبه هو ومن معه، إلا أن رحبعام أجابهم: «الآن أبى حملكم نيراً ثقيلاً وأنا أريد على نيركم، أبى أدبكم بالسياسة وأنا أؤدبكم بالعقارب» (الملوك الأول ١٢/١١)، وكانت بداية الشقاق بين رحبعام ويربعام، وانقسمت مملكة سليمان وهى لا تزال بعد فى صياها.

وانتجه يربعام إلى شكيم ولم تكن أورشليم فى ذلك الوقت تعنى له ولمن معه شيئاً على الإطلاق، بل لقد تحدى يربعام هذه المدينة، وسعى إلى سحب أى خصوصية لها، وهذا ما ترويه النصوص المقدسة:

«وبنى يربعام شكيم فى جبل أفرائيم وسكن بها، ثم خرج من هناك وبنى فتوثيل، وقال يربعام فى قلبه: لأن ترجع المملكة إلى بيت داود، إن

صعد هذا الشعب ليقربوا ذبائح في بيت الرب في أورشليم يرجع قلب هذا الشعب إلى سيدهم إلى رحبعام ملك يهوذا ويقتلون ويرجعوا إلى رحبعام ملك يهوذا، فاستشار الملك وعمل عجلي ذهب وقال لهم: كثير عليكم أن تصعدوا إلى أورشليم، هو ذا آلهتك يا إسرائيل الذين أصدوك من أرض مصر ووضع واحدًا في بيت إيل وجعل الآخر في دان». (ملوك أول ١٢/٢٥ - ٢٩).

ومن يمعن النظر في النص السابق، سيجد أن أورشليم لم تكن ذات «خصوصية» في ذلك الوقت، بل و«بيت الرب» ذاته لم يكن موضع قداسة، بدليل أن يرعام أراد تحويل أتباعه عن هذا البيت، وأقام بديلاً للناس في شكيم، بل وانصرف تمامًا إلى عبادة العجول الذهبية، تلك العبادة التي أشربت في قلوبهم منذ قرون^(١).

وظلت أورشليم، كما ظل بيت الرب فيها، ولزمن طويل، لا يحظيان بأى قدسية في نفوس بنى إسرائيل، وهاك الأدلة:

«وأما رحبعام بن سليمان فملك في يهوذا... وعمل يهوذا الشر في عيني الرب، وأغاروه أكثر من جميع ما عمل آبائهم بخطاياهم التي أخطأوا بها، وبنوا هم أيضًا لأنفسهم مرتفعات وأنصابًا وسوارى على كل تل مرتفع، وتحت كل شجرة خضراء، وكان أيضًا مابونون في الأرض، فعلوا حسب كل أرجاس الأمم الذين طردهم الرب من أمام بنى إسرائيل» (الملوك الأول ١٤/٢٢ - ٢٤).

(١) انظر: موفق محادين، دورة الدين اليهودي، دار الكتوز الأدبية، بيروت، ١٩٩٧، ص: ٢٠٠.

ثم جاء أبايم ملكاً على يهوذا لثلاث سنين في أورشليم:
«وسار في جميع خطايا أبيه التي عملها قبله، ولم يكن قلبه كاملاً مع
الرب إلهه كقلب داود أبيه» (الملوك الأول ١٥/٢).

ومن مملكة إسرائيل، يتحرك بعشا ملكها إلى أورشليم فيجمع آسا -
ملك يهوذا - كل ما بقى في خزائن بيت الرب وبيت الملك من فضة
وذهب، ويرسلها مع عبيده إلى بنهدد بن طبريمون بن حزيون - ملك
آرام الدمشقي - بهدف تأليب هذا الملك الآرامي ضد ملك إسرائيل.
(الملوك الأول ١٥/١٨ - ١٩).

ولو كان لبيت الرب في أورشليم ذرة من مهابة وقداسة، ما تم
الاستيلاء على «ممتلكات ومخصصات» الرب، بل وإرسالها إلى ملك
آرامي.

ودنس يهورام بن يهوشافاط ملك يهوذا أورشليم طوال ثماني سنين
جلس على كرسى الحكم فيها، وسار في طريق ملوك إسرائيل الوثني،
وصاهر بنت آخاب ملك إسرائيل والذي رعى الوثنية في المملكة
الإسرائيلية الشمالية (الملوك الثاني ٨/١٦ - ١٨).

وخلال السنة الواحدة التي تملك فيها أخزيا بن يهورام على يهوذا، لم
تكن لأورشليم أية قداسة لديه، وفعل كل الرجاسات فيها

(الملوك الثاني ٨/٣٥ - ٣٧).

ويهورام يجمع الجلادين والسعاة ويدخلهم بيت الرب ليضع خطة
اغتيال لخصومه، ويصدر أوامره بقتل عثليا أم أخزيا

(الملوك الثاني ١١/٤ - ١٦).

ومع أن الملك يهوآش قد ملك في أورشليم أربعين سنة، إلا أنه قد أبقى على المظاهر الوثنية في المدينة : «إلا أن المرتفعات لم تنتزع بل كان الشعب لا يزالون يذبحون ويوقدون على المرتفعات»

(الملوك الثاني ١٢/٣).

وسار على دربه ابنه أمصيا، الذي ملك أورشليم ٢٩ عامًا :

«إلا أن المرتفعات لم تنتزع، بل كان الشعب لا يزالون يذبحون ويوقدون على المرتفعات» (الملوك الثاني ١٤/٤)، أي أن الوثنية استمرت ضاربة بجذورها في أورشليم.

أما يهوآش - ملك إسرائيل - فلم تكن في نفسه ذرة تقديس لأورشليم، فقام بهدم سورها، واستولى على ممتلكات الرب في بيته، ولا أعرف هنا كيف يفسر لنا أتباع إسرائيل المعاصرين هذه «المكانة المتدنية» لأورشليم في نفوس حكامهم وملوكهم؟ :

«وأما أمصيا ملك يهوذا بن يهوآش بن أخزيا فأمسكه يهوآش - ملك إسرائيل - في بيت شمس وجاء إلى أورشليم وهدم سور أورشليم من باب أفرايم إلى باب الزاوية: أربع مئة ذراع، وأخذ كل الذهب والفضة وجميع الأنية الموجودة في بيت الرب وفي خزان بيت الملك والرهائن ورجع إلى السامرة» (الملوك الثاني ١٤/١٢ - ١٤).

والملك الشاب عزريا بن أمصيا الذي تملك على أورشليم أكثر من نصف قرن، قد فعل المستقيم في عيني الرب: «لكن المرتفعات لم تنتزع، بل كان الشعب لا يزالون يذبحون ويوقدون على المرتفعات»

(الملوك الثاني ١٥/٤).

ومعنى هذا، أن نصف قرن من الحكم، لم تستطع خلق قداسة لأورشليم في قلب حاكمها وسكانها من الإسرائيليين.

وزاد آحاز بن يوثام - الذي حكم أورشليم ستة عشر عامًا - من تدنيس أورشليم حيث «لم يعمل المستقيم في عيني الرب إلهه كداود أبيه، بل سار في طريق ملوك إسرائيل حتى إنه عبر ابنه في النار حسب أرجاس الأمم الذين طردهم الرب من أمام بني إسرائيل، وذبح وأوقد على المرتفعات وعلى التلال وتحت كل شجرة خضراء»

(الملوك الثاني ١٦/٢ - ٤).

وآحاز بن يوثام الذي تملك ستة عشر عامًا على أورشليم، تحالف مع تغلت فلاسر - ملك آشور - ضد فقح بن رمليا - ملك إسرائيل - لصد العدوان على أورشليم، وهو سار في طريق الأمم الوثنية، فعبر ابنه في النار وذبح وأوقد على المرتفعات وعلى التلال وتحت كل شجرة خضراء في أورشليم، بل أخذ آحاز الفضة والذهب الموجودة في بيت الرب وأرسلها إلى ملك آشور هدية، وإمعانًا في الوثنية، أمر الملك آحاز أوريا الكاهن ببناء مذبح وثني للملك آشور (الملوك الثاني ١٦/١ - ١٥).

وفيما يلي، نسوق قائمة بما فعله الإسرائيليون في أورشليم، وما حولها: من رجاسات وتدنيس وشرك وكفر، لا يمكن أن يتفق و«التقديس» المزعوم للمدينة:

«وكان أن بني إسرائيل أخطأوا إلى الرب إلههم الذي أصعدهم من أرض مصر من تحت يد فرعون - ملك مصر - وانتقوا آلهة أخرى، وسلكوا حسب فرائض الأمم الذين طردهم الرب من أمام بني إسرائيل

وملوك إسرائيل العربية أقاموهم ، وعمل بنو إسرائيل سرّاً ضد الرب إلههم أموراً ليست بمستقيمة وبنوا لأنفسهم مرتفعات فى جميع مدنهم من برج النواطير إلى المدينة المحصنة (أورشليم) ، وأقاموا لأنفسهم أنصاباً وسوارى على كل تل عال وتحت كل شجرة خضراء ، وأوقدوا هناك على جميع المرتفعات مثل الأمم الذين ساقهم الرب من أمامهم وعملوا أموراً قبيحة لإغاظه الرب ، وعبدوا الأصنام التى قال الرب لهم عنها : لا تعملوا هذا الأمر . . . » (الملوك الثانى ١٧/٧ - ١٢) .

وهذه أعمال وجرائم ملك يهودى حدث عمره اثنا عشر عاماً ، يتولى الملك فى أورشليم خمسة وخمسين عاماً ، فماذا فعل؟

«كان منسى ابن اثنتى عشرة سنة حين ملك ، وملك خمساً وخمسين سنة فى أورشليم ، واسم أمه حفصية ، وعمل الشر فى عيني الرب حسب رجاسات الأمم الذين طردهم الرب من أمام بنى إسرائيل ، وعاد فبنى المرتفعات التى أبادها حزقيا أبوه وأقام مذابح للبعل وعمل سارية كما عمل أخاب - ملك إسرائيل - وسجد لكل جند السماء وعبدها ، وبنى مذابح فى بيت الذى قال الرب عنه فى أورشليم أضع اسمى ، وبنى مذابح لكل جند السماء فى دارى بيت الرب ، وعبر ابنه فى النار وعاف وتفاءل واستخدم جائناً وتوابع وأكثر عمل الشر فى عيني الرب لإغاظته ، ووضع تمثال السارية التى عمل فى البيت الذى قال الرب عنه لداود وسليمان ابنه : فى هذا البيت وفى أورشليم التى اخترت من جميع أسباط إسرائيل أضع اسمى إلى الأبد » (الملوك الثانى ٢١/١ - ٧) .

واستمر ابنه آمون على نفس النهج الدنس

(الملوك الثاني ٢١/١٩ - ٢٢).

أما يهوآحاز الذي لم يملك على أورشليم سوى ثلاثة أشهر فقد دنس المدينة كذلك، وواصل ارتكاب الموبقات في هذه المدينة أخو يهوآحاز الملك الياقيم طوال أحد عشر عاماً تملك فيها على أورشليم

(الملوك الثاني ٢٣/٣١ - ٣٦).

واستمر ملوك أورشليم في سلوكياتهم الوثنية الدنسة تجاه أورشليم وتجاه بيت الرب فيها، فكان الملك يهوياقيم الذي حكم أورشليم إحدى عشرة سنة، واستمر في غي آبائه وأجداده (أخبار الأيام الثاني ٣٦/٥).

ثم جاء صدقيا ليحكم أورشليم إحدى عشرة سنة أخرى:

«وعمل الشر في عيني الرب إلهه ولم يتواضع أمام إرميا النبي من فم الرب، وتمرد أيضاً على الملك نبوخذنصر الذي حلفه بالله وصلب عنقه وقوى قلبه عن الرجوع إلى الرب إله إسرائيل، حتى إن جميع رؤساء الكهنة والشعب أكثروا الخيانة حسب كل رجاسات الأمم ونجسوا بيت الرب الذي قدسه في أورشليم» (أخبار الأيام الثاني ٣٦/١٢ - ١٤).

تلك النصوص التي أوردتها في هذا المقام هي صفحات خالدة، سجلتها أسفار العهد القديم، الكتاب المقدس عند اليهود ومسيحي العالم، تثبت لنا مكانة أورشليم في نفوس الإسرائيليين: ملوكاً وأفراداً بل وكهنة أيضاً، إذ يصور لنا نحميا في سفره صفحة أخرى من فسوق كهنة أورشليم وحماة بيت الرب فيها، ومحاولات النبي نحميا لتطهير بيت الرب في أورشليم مما لحقه من الرجاسات، وتقويم سلوك بني شعبه،

واردة فى الإصحاح الثالث عشر والأخير من سفره.

وخلال ظلمات الوثنية الإسرائيلية والأرجاس والموبقات التى ارتكبتها اليهود فى حق أورشليم، وحق بيت الرب فيها، كانت هناك لحظات وفترات قصيرة من عمر أورشليم، شهدت فيها المدينة وبيت الرب فيها محاولات للتطهر على أيدي بعض المصلحين والأنبياء.

فالملك حزقيا بن آحاز الذى تملك على أورشليم تسعة وعشرين عامًا:

«عمل المستقيم فى عينى الرب حسب كل ما عمل داود أبوه، هو أزال المرتفعات وكسر التماثيل وقطع السوارى وسحق حية النحاس التى عملها موسى؛ لأن بنى إسرائيل كانوا إلى تلك الأيام يوقدون لها ودعوها نحشتان، على الرب إله إسرائيل اتكل، وبعده لم يكن مثله فى جميع ملوك يهوذا ولا فى الذين كانوا قبله» (الملوك الثانى ١٨/٣ - ٥).

حقًا، لم نجد فى ملوك أورشليم على مر تاريخها من قدس المدينة وطهرها وقدر حرمتها، ولا حتى داود وسليمان على نحو ما ذكرت نصوص الكتاب المقدس، ولكن تبقى «قداسة أورشليم» هنا مسألة فردية، بمعنى أنها تعكس «حالة تقوى وورع» خاصة، ولا تعطى لنا انطباعًا عن مكانة المدينة عند الإسرائيليين، والعكس هو الصحيح، فالانطباع العام - على نحو ما أوردنا من نصوص - يقول بوضوح: إن أورشليم لا قداسة لها فى النفوس، ولا مكانة لها فى اليهودية على الإطلاق.

ونذكر ضمن المواقف الإيجابية تجاه أورشليم، محاولات الملك يوشيا الإصلاحية، التى شملت كافة جوانب الشريعة، وبيت الرب، وتطهير أورشليم:

«وأمر الملك حلقيا الكاهن العظيم وكهنة الفرقة الثانية وحراس الباب أن يخرجوا من هيكل الرب جميع الأنية المصنوعة للبعل وللسارة، ولكل أجناد السماء وأحرقها خارج أورشليم في حقول قدرون وحمل رمادها إلى بيت إيل، ولاشئ كهنة الأصنام الذين جعلهم ملوك يهوذا ليقودوا على المرتفعات في مدن يهوذا وما يحيط بأورشليم والذين يوقدون للبعل للشمس والقمر والمنازل ولكل أجناد السماء، وأخرج السارية من بيت الرب خارج أورشليم إلى وادي قدرون وأحرقها في وادي قدرون ودقها إلى أن صارت غباراً وذرى الغبار على قبور عامة الشعب، وهدم بيوت المأبوتين التي عند بيت الرب حيث كانت النساء ينسجن بيوتاً للسارية، وجاء بجميع الكهنة من مدن يهوذا، ونحس المرتفعات حيث كان الكهنة يوقدون من جيع إلى بثر سبع، وهدم مرتفعات الأبواب التي عند مدخل باب يشوع رئيس المدينة التي عن اليسار في باب المدينة، إلا أن كهنة المرتفعات لم يصعدوا إلى مذبح الرب في أورشليم، بل أكلوا فطيراً بين إخوتهم، ونحس توفة التي في وادي بنى هنوم لكي لا يعبر أحد ابنه أو ابنته في النار لمولك، وأباد الخيل التي أعطها ملوك يهوذا للشمس عند مدخل بيت الرب عند مخدع تشملك الخصى الذي في الأروقة ومركبات الشمس أحرقها بالنار، والمذابح التي على سطح عليّة آحاز التي عملها ملوك يهوذا والمذابح التي عملها منسى في دارى بيت الرب هدمها الملك ورخص من هناك وذرى غبارها في وادي قدرون، والمرتفعات التي قبالة أورشليم التي عن يمين جبل الهلاك التي بناها سليمان ملك إسرائيل لعشتورث رجاسة الصيدونيين ولكموش رجاسة الموابيين ولللكوم كراهة بنى عمون نجسها الملك، وكسر التماثيل وقطع السوارى وملا مكانها من

عظام الناس، وكذلك المذبح الذى فى بيت إيل فى المرتفعة التى عملها يربعام بن نباط الذى جعل إسرائيل يُخطئُ فذانك المذبح والمرتفعة هدمهما وأحرق المرتفعة وسحقها حتى صارت غباراً وأحرق السارية، والتفت يوشيا فرأى القبور التى هناك فى الجبل فأرسل وأخذ العظام من القبور وأحرقها على المذبح ونحسه حسب كلام الرب الذى نادى به رجل الله الذى نادى بهذا الكلام، وقال: ما هذه الصورة التى أرى، فقال له رجال المدينة: هى قبر رجل الله الذى جاء من يهوذا ونادى بهذه الأمور التى عملت على مذبح بيت إيل، فقال: دعوه، لا يحركن أحد عظامه، فتركوا عظامه وعظام النبی الذى جاء من السامرة، وكذا جميع بيوت المرتفعات التى فى مدن السامرة التى عملها ملوك إسرائيل للإغظة أزالها يوشيا وعمل بها حسب جميع الأعمال التى عملها فى بيت إيل، وذبح جميع كهنة المرتفعات التى هناك على المذابح وأحرق عظام الناس عليها ثم رجع إلى أورشليم» (الملوك الثانى ٢٣/ ٤ - ٢٠).

لقد كانت حركة يوشيا الإصلاحية هى محاولة لإعادة خلق الماضى، إذ قام أولاً بدعوة جميع شيوخ يهوذا (الملوك الثانى ٢٣/ ١) لتجديد العهد معهم فى بيت الرب، وأقسم الحاضرون على نبذ الآلهة والأوثان والالتزام بعبادة إله إسرائيل وحده (٢٣/ ٢ - ٣)، ثم اتجه يوشيا إلى تطهير العقائد والشعائر (٢٣/ ٤ - ٢٤)، حيث كانت الشعائر والطقوس الوثنية منتشرة فى كل مكان من أورشليم، ولهذا رأينا فى النص السابق، كيف جمع يوشيا كل المعدات الطقسية الوثنية المتعلقة بعبادة بعل والسارية (عشتورت) وكل أجناد السماء (الشمس والقمر والمنازل) إلى خارج المدينة وأحرقها

في وادي قدرون، كما أخرج الأصنام (المصاطب) من بيت الرب، وهدم بيوت الداعرات المقدسات المكرسة للسارية في الساحة^(١).

لقد كانت إصلاحات يوشيا بمثابة حملة من أجل صهيون، إذ كان يحاول تحقيق المثل الأعلى «التشوي» بأن يجعل أورشليم البيت الأوحد للرب يهوه في شتى أرجاء إسرائيل ويهوذا، ومن ثم رأينا أنه كان من الضروري تدمير وتدنيس جميع الأماكن المقدسة الأخرى، بحيث تظل القدسية الكاملة التامة لبيت الرب وحده.

لقد كان إعلاء شأن أورشليم من قبل يوشيا هو السبب وراء تلك الحملة العنيفة من التدمير والهلاك، ومع أن الدعوة إلى التراجع والرحمة - على نحو ما دعا الأنبياء - كانت من الصفات الأساسية المصاحبة للعقيدة آنذاك، فإن يوشيا قد رأى بإصلاحاته، أن شرف أورشليم وقدسيتها، أهم من أي اعتبارات أخرى^(٢).

* * *

(١) مزيد حول هذه الإصلاحات في: كارين أرمسترونج، مرجع سبق ذكره، ص: ١٣٨، ١٣٩.

(٢) المرجع السابق، ص: ١٤١.

الفصل الخامس
اللاهوت الأورشليمي

في النفي البابلي - وبعده - بدأت ملامح لاهوت (فكر ديني) يجعل من أورشليم نقطة ارتكازه ومحوره، ومع إسقاط ملك اليهود نهائيًا من على أرض أورشليم في القرن السادس قبل الميلاد، بدأت أورشليم القدس تأخذ شكلًا صوفيًا عند اليهود، وتحولت إلى رمز للوطن الضائع، في الوقت الذي تحرك فيه التعصب الطبقي لليهود المنفيين إلى بابل، والذي كان يشعرهم بأنهم متميزون وحاكمون في فلسطين، لقد تحول هذا التعصب الطبقي إلى تعصب ديني وعنصري^(١)، لم يكن هؤلاء المنفيون في بابل يحيون حياة الأسر والمذلة، بل تمتعوا بملذات الحياة في بابل، وبأمر الرب إله إسرائيل:

«هكذا قال رب الجنود إله إسرائيل لكل السبي الذي سبيته من أورشليم إلى بابل: ابنوا بيوتًا واسكنوا واغرسوا جنان وكلوا ثمرها، خذوا نساء ولدوا بنين وبنات، وخذوا لبناتكم نساء واعطوا بناتكم لرجال فيلدن بنين وبنات واكثروا هناك ولا تفلوا واطلبوا سلام المدينة التي سبيتكم إليها وصلوا لأجلها إلى الرب لأنه بسلامها يكون لكم سلام» (إرميا ٢٩/٤ - ٧).

هكذا تمتع المنفيون بالحياة: بناء وغرس وتزواج وتناسل وصلاة إلى الرب، وربما كانت مشكلتهم الوحيدة هي استحالة الإعلان عن عبادتهم للرب «يهوه» حسب تقاليدهم، أي: في أورشليم.

ومن هنا كان تركيز المنفيين على حب أورشليم، وعلى جميع الشعائر الدينية التي يمكن أن تجعلهم متميزين على غيرهم، وأن تفصلهم

(١) انظر: رجاء جارودي، مرجع سبق ذكره، ص: ١٥٣.

وتفردهم عن ذلك المحيط الجديد.

ومع أن الهيكل السليماني الأورشليمي كان يزخر بـ «وثنية» في ظاهرها، فقد أصبح من المؤسسات التي تتمتع بأكبر إعزاز وتكريم في إسرائيل، وكان بعض الأنبياء والمصلحين يبدون اعتراضهم عليه ويحثون الناس على العودة إلى «دين الخروج من مصر»، زاعمين أنه أنقى وأصفى، لكن مع التدمير البابلي لهذا الهيكل، شعر معظم المنفيين بأن عالمهم قد أصابه الفناء^(١)، ومن هنا تحول الفكر اليهودي تجاه الهيكل تحولاً ملحوظاً في معناه ومبناه.

إن رؤيا حزقيال - بعد تدمير المدينة بنحو أربعة أعوام - والتي رأى فيها مدينة تقع على جبل شهابق واسمها «يهوه شمة» أي: «يهوه هناك» لتعكس المكانة التي أصبحت تحتلها أورشليم في قلوب المنفيين، إذ هي جنة أرضية، ومكان السلم والخصب، وعلى نحو ما ينبع النهر في جنة عدن وتتدفق أنهاره لتنتشر الخصب والنماء في سائر أرجاء الدنيا، هكذا تفجرت اليباييع في رؤيا حزقيال من تحت معبد المدينة، لتحمل معها الحياة للأحياء، والشفاء للمرضى، فازدهر شجر لا يذبل ورقه ولا ينقطع ثمره... ويكون ثمره للأكل وورقه للشقاء» (حزقيال ٤٧/١١).

هكذا أسهمت أحاسيس الاغتراب في المنفى، وآلام الانبئات والنزوح، في التحول الفكري إلى الأساطير القديمة، ومن ثم تصوروا العودة إلى المكان الذي عليهم أن يقيموا فيه، وابتكر حزقيال في رؤياه هيكلًا في وسط المدينة في إطار خريطة مقدسة جديدة. هذا الهيكل المبتكر يطابق هيكل سليمان الذي أصبح حطامًا (حزقيال ٤١/٣ - ٤)، لكنه يختلف

(١) انظر: كارين أرمسترونج، مرجع سبق ذكره، ص: ٩٩.

عن الهيكل السليماني في أمرين مهمين: فلم يعد قصر الملك مجاوراً للهيكل، وأصبحت مباني محاطة بفناءين حولهما الأسوار^(١).

لقد كان وصف حزقيال لأرض الميعاد - في رؤياه - يختلف تمامًا عن جغرافية هذه الأرض الطبيعية، فمدينة «يهوه شمة» تختلف عن أورشليم من حيث إنها «مركز الأرض» نفسه، كما أنها كانت أكبر من مملكتي إسرائيل ويهوذا معاً.

إن رؤيا حزقيال «بالوطن الموعود» لم تكن في حقيقتها وصفاً حقيقياً لوطنه، بل هي صورة روحية أكثر منها واقعية، فالهيكل أو المعبد هو نواة حقيقة العالم، يليه المدينة المحيطة به، ثم منطقة خاصة يشغلها القائمون على الكهانة والقداسة وهم: الملك والكهنة واللاويون.

إن التفاصيل الدقيقة التي ترسمها لنا رؤيا حزقيال للمعبد والحراب وطقوسه وكهنته قد تم تصورهما في وقت لم يكن ثمة أمل في تنفيذها، حيث كان المعبد قد دمر تماماً، ومع ذلك فقد أسهمت - على ما يبدو - «خصوصية بابل الطبيعية» في «خصوصية الخيال اليهودي».

إن تلك النصوص العبرية الحافلة بالتفاصيل الدقيقة عن هذا المكان المقدس، وعلى نحو ما نجد في سفر حزقيال، لم تكن معبرة عن أوضاع قائمة بالفعل وقت كتابة هذه النصوص، ولا حتى قبلها، لقد أصبحت أورشليم - وفق هذا الفكر الناشئ في المنفى «قيمة» داخلية في نفوس المنفيين، وأصبحت صورة للمخلص الذي يمكن تحقيقه.

إن «الأحلام الحزقيالية» - في رأيي - لم تكن أحلاماً قابلة للتحقيق،

(١) انظر تفاصيل هيكل حزقيال في رؤياه في الإصحاح الحادي والأربعين من سفر حزقيال.

بل لم يطلب حزقيال نفسه تحقيق هذه الأحلام؛ ولم يفكر المنفيون في التطبيق المادى لها، ودليلنا على ذلك أنه عندما أتحت الفرصة للمنفيين كي يعودوا إلى «أرض الأحلام» فضّل كثير من يهود المنفى البقاء في بابل لأمر بسيط وهو أنهم كانوا يدركون أن الوجود الجسماني المادى في أورشليم ليس ضرورياً وفق قيمهم الجديدة تجاه صهيون وأورشليم.

لقد كان حزقيال يتطلع إلى «يوتوبيا» متمثلة في تحول روحاني يتم بموجبه منح يهوه لشعبه قلباً جديداً وروحاً جديدة، ومن ثم لم يكن «الخلاص» ليتمثل في بناء هيكل جديد وحسب، وإنما في بعث «شخصية يهودية» جديدة تماماً.

لكن يبدو أن أحلام حزقيال ورؤاه الطوباوية المثالية لم تكن بينها وبين الواقع أية وشائج، إذ كانت قلوب العائدين من المنفى قد استبدلت ما يسرى فيها من دماء، بعنصرية بغیضة جعلتهم ينظرون إلى الأمم الأخرى كأعداء لهم، بل إنهم كانوا يرون في «عام هآرتس» أي اليهود الباقين في أورشليم ما يرونه في الأغراب الجوييم، وإن كان - بمقتضى شرعة القداسة - يسمح لهم بدخول أورشليم، إن العائدين من المنفى لم يبدووا أى ترحيب بالعيش مع إخوانهم «عام هآرتس» ومن هنا لم تحقق أورشليم السلم المنتظر، بل تحولت إلى موضع خلاف في الأرض المقدسة^(١).

هكذا ضاعت أحلام حزقيال، وشطحات إشعياء، عاد المنفيون ليجدوا هيكلاً مادياً جديداً، لكنه فقد شيئاً رئيساً لم يعثر عليه حتى الآن، ألا وهو تابوت العهد، الذي انقطعت أخباره منذ المنفى وحتى يومنا هذا.

بل لقد أبدى الرب سخريته من تحديد محل إقامته في هيكل محدود

(١) انظر: كارين أرمسترونج، مرجع سبق ذكره، ص: ١٧٠.

الأبعاد: «هكذا قال الرب: السماوات كرسى، والأرض موطن قدمي، أين البيت الذي تبنيون لي وأين مكان راحتي، وكل هذه صنعتها يدي...» (إشعيا ٦٦/١).

إن النصوص العبرية التي تصف ما بعد النفي لا تشير إلى عودة «يهوه» إلى صهيون على النحو الذي تنبأ به إشعيا، ومع هذا فقد استمر الناس يحلمون بأورشليم الجديدة، الآمال القديمة لم تمت، وأورشليم أصبحت رمزاً للخلاص النهائي الذي لم يتحقق حتى الآن:

«هكذا قال الرب... هأنذا خالق سماوات جديدة وأرضاً جديدة، فلا تذكر الأولى ولا تخطر على بال، بل افرحوا وابتهجوا إلى الأبد في ما أنا خالق لأنني هأنذا خالق أورشليم بهجة وشعبها فرحاً، فابتهج بأورشليم، وأفرح بشعبي ولا يسمع فيها صوت بكاء ولا صوت صراخ، لا يكون بعد هناك طفل أيام ولا شيخ لم يكمل أيامه؛ لأن الصبي يموت ابن مئة سنة، والحاطئ يلعب ابن مئة سنة، وبينون بيوتاً ويسكنون فيها، ويغرسون كروماً ويأكلون ثمارها لا بينون وآخر يسكن، ولا يغرسون وآخر يأكل... ويكون أني قبلما يدعون أنا أجيب، وفيما هم يتكلمون بعد أنا أسمع، الذئب والحمل يرعيان معاً، والأسد يأكل التبن كالبقرة، أما الحية فالتراب طعامها، لا يؤذون ولا يهلكون في كل جبل قدسي، قال الرب» (إشعيا ٦٥/١٧ - ٢٥).

ولعلنا نتساءل بعد قراءة النص السابق: هل تحققت نبوءة إشعيا وقول الرب؟!.

إن أورشليم القدس لم تعرف تلك الصورة على الإطلاق في جميع الفترات التي عاشها اليهود فيها، بل على العكس، فإنها في ظل الوجود

اليهودى كانت - وما زالت - ملآنة بالصراخ والبكاء، ولا يأمن فيها المرء على حياته، فما بالناس بالذئب والحمل!!

إن الحقبة التاريخية التالية لإشعيا ونبوءته حول أورشليم لتفيد بوقوع عكس ما جاء فى هذه النبوءة، فالوثنية القديمة ما زالت تعيش فى أوكارها وأسوارها، والمشاكل الاجتماعية متأججة، فالقادمون من المنفى يسعون إلى استبعاد الآخرين من المدينة وقصرها عليهم فقط مع أن الرب يقول: «بئس بيت الصلاة، يدعى لكل الشعوب» (إشعيا ٥٦/٧).

ومنذ رؤى حزقيال، ونبوءات إشعيا، وحتى وقتنا هذا لم يسجل لنا التاريخ اليهودى - المسجل فى كتابهم المقدس، وسائر كتبهم - تحقيق ما جاء فى هذه الرؤى والنبوءات، وأغلب الظن أنها لا تعكس واقعاً دنيوياً، بل ربما كانت صورة من صور الملكوت الربانى فى الآخرة.

لقد أسهمت كل هذه الأحلام والرؤى فى خلق «لاهوت» أورشليمي تضخم مع مرور الزمن، وازداد تضخمه مع تداخل العناصر السياسية والمصالح الدنيوية فى العصر الحديث.

وإذا كنا فى الصفحات السابقة قد أوضحنا الأرضية التى عليها نشأ اللاهوت الأورشليمي، فلإننا فى الصفحات التالية نعرض بعض ملامح هذا اللاهوت، إلا أننا نود أن نشير بداية إلى قضية مهمة تنسف جذور هذا اللاهوت بأكمله، وتتمثل هذه القضية فى الفهم الخاطئ لعلاقة الرب بأورشليم، والتى سبق وأن أسهبنا الحديث حولها فى فصل سابق.

فالعلاقة «السكنية» بين «يهوه» والهيكل فى أورشليم تحددها بنود واضحة فى «عقد السكن» المزعوم.

جاء في سفر الملوك الأول ١/٩ - ٩ ما يلي:

«وكان لما أكمل سليمان بناء بيت الرب وبيت الملك وكل مرغوب سليمان الذي سر أن يعمل، أن الرب تراءى لسليمان ثانية، كما تراءى له في جبعون وقال له الرب: قد سمعت صلاتك وتضرعتك الذي تضرعت به أمامي. قدست هذا البيت الذي بنيت لأجل وضع اسمي فيه إلى الأبد وتكون عيناي وقلبي هناك كل الأيام، وأنت إن سلكت أمامي كما سلك داود أبوك بسلامة قلب واستقامة، وعملت حسب كل ما أوصيتك وحفظت فرائضي وأحكامي، فإني أقيم كرسى ملكك على إسرائيل إلى الأبد كما كلمت داود أبك قائلاً: لا يعدم لك رجل عن كرسى إسرائيل، إن كنتم تنقلبون أنتم أو أبناؤكم من ورائي ولا تحفظون وصاياي فرائضي التي جعلتها أمامكم، بل تذهبون وتعبدون آلهة أخرى وتسجدون لها، فإني أقطع إسرائيل عن وجه الأرض التي أعطيتهم إياها والبيت الذي قدسته لاسمى أنفيه من أمامي ويكون إسرائيل مثلاً وهزأة في جميع الشعوب، وهذا البيت يكون عبرة، كل من يمر عليه يتعجب ويصفر ويقولون: لماذا عمل الرب هكذا لهذه الأرض ولهذا البيت، فيقولون: من أجل أنهم تركوا الرب إلههم الذي أخرج آباءهم من أرض مصر وتمسكوا بآلهة أخرى وسجدوا لها وعبدوها لذلك جلب الرب عليهم كل هذا الشر».

النص السابق يوضح لنا عقد الاتفاق المبرم بين «مالك العقار» و«ساكنه» والسكن هنا هو الطرف الأقوى في المسألة، إذ نراه يملأ شرطين أساسيين، حيث لم تكن ثمة مشكلة سكنية بعد - على النحو التالي:

أولاً - على مالك العقار (باني الهيكل = سليمان) أن يسلك مسلك الأب داود بسلامة قلب واستقامة.

ثانيًا - أن يعمل «مالك العقار» حسب كل وصايا الرب (السكان) ويحفظ فرائضه وأحكامه.

كما اشترط السكان شرطين أيضًا يتم بموجبهما فسخ العقد، وهما:
أولاً - تخلى صاحب العقار وورثته عن طريق الرب وعدم حفظ وصاياهم.

ثانيًا - عبادة المالك وورثته للآلهة الأخرى والسجود لها.

وسفر الملوك كله يضم «شهادات موثقة» و«محاضر» مسجلة تسجيلًا أمينًا لإخلال المالك وورثته بشرطى سكن الرب وإقامته في البيت، ومن ثم فإن الرب لم يسكن على الإطلاق في هذا المكان.

ونتيجة عدم الالتزام اليهودي والإخلال بنود العقد السابقة، فقد أعلن الرب بطلان العقد (الملوك الأول ١١/١١ - ١٣)، بل وقام بتوقيع العقوبات الملائمة على بناء البيت وأصحابه.

ويعطى إله إسرائيل الفرصة مرة أخرى للعودة والسكنى في بيته الأورشليمي، والعودة - كذلك - مشروطة:

«إن ختتم فلننى أفرقكم في الشعوب، وإن رجعتم إلى وحفظتم وصاياي وعملتموها، إن كان المنفيون منكم في أقصاء السماوات، فمن هناك أجمعهم وآتى بهم إلى المكان الذى اخترت لإسكان اسمى فيه»

(نحميا ١/٨ - ٩).

وتم بناء البيت المدمر على أيدي البابليين، وتجدد العقد مع الرب للسكنى في بيته بأورشليم، واجتمع الشعب «ودخلوا في قسم وحلف أن يسيروا في شريعة الله التى أعطيت عن يد موسى عبد الله وأن يحفظوا

ويعملوا جميع وصايا الرب سيدنا وأحكامه وفرائضه»

(نحميا ١٠/٢٩ - ٣٠).

لكن «محاضر» العهد القديم تثبت إخلال بني إسرائيل بشروط العقد، ومن ثم، فإن الرب لم يعد مقيماً في البيت المزعوم.

هكذا إذن تبدو الحقيقة المؤلمة، أساطير تحاك حول بيت مهجور. الرب - وفق حكمه وشروطه - لا يسكن فيه، حتى تابوته المقدس، لم يعد له ذكر، بل لم يعد له أثر لا من الناحية المادية الملموسة، ولا من الناحية المعنوية المتمثلة في تطبيق ما فيه، ومع هذا يتضخم اللاهوت حول أورشليم وبيت الرب، ليصبح هذا التضخم صعب الاستئصال، إذ تشعب في الفكر اليهودي شعباً سرطانياً، ولم تعد هناك إمكانية تدخل جراحى يعيد الأمور إلى نصابها.

نعود مرة أخرى إلى اللاهوت الأورشليمي الذي نلج فيه من بوابة رئيسة تتمثل في مركزية وتمحور أورشليم في الحياة اليهودية.

جاء في المزمور ١٢٥/١ - ٢ ما يلي:

«المتوكلون على الرب مثل جبل صهيون الذي لا يتزعزع، بل يسكن إلى الدهر. أورشليم الجبال حولها، والرب حول شعبه من الآن وإلى الدهر».

دوائر متداخلة في بعضها، جبل صهيون وأورشليم والرب والشعب، لكن هناك دائرة أم ترتبط بها سائر الدوائر، ألا وهي أورشليم.

من هذا المنطلق، كانت أورشليم محور الفكر الديني اليهودي.

فهى تحدد موقف الرب من الشعب ومن الأغيار.

وهي مقدسة في ذاتها، وجالبة القداسة لمن يسكن فيها.

وهي مصدر الشريعة.

ومركز العبادة.

و... و...

ففيما يتعلق بارتباط الرب بها، وخضوع الأغيار لها وانتقام الرب من أعدائها نجد هذا النص العبري المقدس الوارد في سفر إشعياء (٢٤/٤٩ - ٢٥) وسبق أن استشهدت به من قبل.

وفيما يتعلق بقداساتها نجد قول الرب لأورشليم:

«استيقظي استيقظي، البسي ثياب عزك يا صهيون. البسي ثياب جمالك يا أورشليم المدينة المقدسة؛ لأنه لا يعود يدخلك فيما بعد أغلف ولا نجس...» (إشعياء ٥٢/١).

وأما تقديس ساكنها فنجد في النص التالي:

«انظر: صهيون مدينة أعيادنا. عينك تريان أورشليم مسكنًا مطمئنًا... لا يقول ساكن أنا مرضت. الشعب الساكن فيها مغفور الإثم» (إشعياء ٣٣/٢٠ - ٢٤).

هكذا يتطهر ويتقدس سكان أورشليم، بل ويرفع عنهم سنن الله في سائر كونه وخلقه، فالساكن أورشليم لا يمرض، كما أنه قد حظى بتأشيرة دخول الجنة وصلك الغفران.

إن الأثام لا تغفرها إلا العبادات كالصلاة والصوم والدعاء والاستغفار، لكن سكنى أورشليم تستوجب مغفرة الرب لها، ومن ثم فإن السكنى في أورشليم هي عبادة في حد ذاتها.

ويصرح الرب بقداسة سكان أورشليم، وما يحل بهم من نعيم لا يحظى به إلا أهل الجثان. يقول إله إسرائيل:

«في ذلك اليوم يكون غصن الرب بهاءً ومجداً، وثمر الأرض فخراً ووزينة للناجين من إسرائيل، ويكون أن الذي يبقى في صهيون، والذي يترك في أورشليم يسمى قدوساً، كل من كُتب للحياة في أورشليم، إذا غسل السيد قذر بنات صهيون، ونقى دم أورشليم من وسطها بروح القضاء وبروح الإحراق، يخلق الرب على كل مكان من جبل صهيون وعلى محفلها سحابة نهاراً ودخاناً ولمعان نار ملتهبة ليلاً؛ لأن على كل مجد غطاء، وتكون مظلة للفء نهاراً من الحر، والملجأ ولمخياً من السيل ومن المطر» (إشعيا ٤/٢ - ٦).

وعلى النحو السابق نجد القداسة قد شملت المكان (غسل السيد قذر بنات صهيون، ونقى دم أورشليم)، كما شملت من يعيش في هذا المكان (والذي يترك في أورشليم يسمى قدوساً).

ليس هذا فحسب، فإن أورشليم هي مصدر الشريعة اليهودية التي تضيء للبشرية طريقها، وتهدى سائر الأمم:

«ويكون في آخر الأيام أن جبل بيت الرب يكون ثابتاً في رأس الجبال ويرتفع فوق التلال وتجري إليه كل الأمم، وتسير شعوب كثيرة ويقولون: هلم نصعد إلى جبل الرب إلى بيته، إلى بيت إله يعقوب، فيعلمنا من طرقه ونسلك في سبله؛ لأنه من صهيون تخرج الشريعة ومن أورشليم كلمة الرب» (إشعيا ٢/٢ - ٣).

ويؤكد النبي ميخا على انبعاث الشريعة من أورشليم، فيكرر عبارة

إشعياء السابقة قائلاً: «من صهيون تخرج الشريعة، ومن أورشليم كلمة الرب» (مicha ٢/٤).

وتتجسد قمة «العنصرة الفكرية» الأورشليمية وتبلغ مداها عندما يصرح لنا المزمور ١٣٧ بعدم جواز الابتهاال إلى الرب - وهو نوع من أنواع العبادة - خارج أورشليم:

«على أنهار بابل هناك جلسنا، بكيتنا أيضاً عندما تذكرن صهيون، على الصفصاف في وسطها علقنا أعوادنا؛ لأنه هناك سألنا الذين سبونا كلام ترنيمة، ومعذبونا سألونا فرحاً قائلين: رغوا لنا من ترنيمات صهيون، كيف نرنم ترنيمة الرب في أرض غريبة؟!» (١ - ٤).

ويمثل خضوع الأمم الأخرى لسلطان أورشليم نقطة جوهرية في اللاهوت الأورشليمي، وانعكس ذلك المفهوم فيما يلي:

«ابتهجى جداً يا ابنة صهيون، اهتفى يا بنت أورشليم، هوذا ملكك يأتي إليك، هو عادل ومنصور، وديع وراكب على حمار - وعلى جمح ابن أتان... يتكلم بالسلام للأمم، وسلطانه من البحر إلى البحر، ومن النهر إلى أقاصى الأرض» (زكريا ٩/٩ - ١٠).

هكذا يتسلط ملك أورشليم ويمتد سلطانه إلى أقاصى الأرض، فالمسألة إذن لا تتوقف على أرض الميعاد وإعادة بناء هيكل؛ لأن كل من يؤمن بالنص السابق عليه أن يسعى إلى تحقيق فحواه، وأن يسيطر ملك أورشليم على أقاصى الأرض.

وملك أورشليم هنا ليس شخصاً بعينه، وإنما هو رمز للسلطان الإسرائيلي الذي يتخذ من أورشليم مركزاً له.

فبعد أن تم اختزال مصادر التشريع الرباني في مكان محدد، كان لابد أن تكتمل السلطة والسيطرة بجانبها الديني، ومن ثم كان لابد من إعلان كلمة الرب والتبشير بالملك الأورشليمي القاهر للعالم بأسره ويتأكد هذا المفهوم، مفهوم السيطرة الأورشليمية اليهودية على العالم في المزمور ٦٨، حيث جاء فيه:

«من هيكلك فوق أورشليم لك تقدم ملوك هدايا» (٢٩).

وتنكير لفظ ملوك في العبارة السابقة يفهم منه خضوع ملوك من شتى أصقاع الأرض لإله أورشليم وتقديمهم للهدايا في هيكل الرب.

وتأتي تفاصيل خضوع العالم غير اليهودي لأورشليم - أي لليهود - في الإصحاح الستين من سفر إشعياء، ويجدر بنا في هذا المقام أن نورده كله، حتى نقف على أبعاد هذا «المفهوم القهري» للأمم والشعوب.

«قومي استنيري لأنه قد جاء نورك ومجد الرب أشرق عليك؛ لأنه ها هي الظلمة تغطي الأرض والظلام الدامس الأمم، أما عليك فيشرق الرب ومجده عليك يري، فتسير الأمم في نورك والملوك في ضياء إشراقك.

ارفعي عينيك حوالبك وانظري، قد اجتمعوا كلهم جاءوا إليك، يأتي بنوك من بعيد وتحمل بناتك على الأيدي، حينئذ تنظرين وتبينين ويخفق قلبك ويتسع لأنه تتحول إليك ثروة البحر ويأتي إليك غنى الأمم، تغطيك كثرة الجمال بكران مديان وعيفة كلها تأتي من شبا، تحمل ذهباً ولباناً وتبشر بتسابيح الرب، كل غنم قيذار تجمع إليك، كباش نبايوت تخدمك، تصعد مقبولة على مذبحي وأزين بيت جمالي.

من هؤلاء الطائرون كسحاب وكالحمام إلى بيوتها، إن الجزائر تنتظرن

وسفن ترشيش في الأول لتأتى ببنيك من بعيد وفضتهم وذهبهم معهم
لاسم الرب إلهك و قدوس إسرائيل؛ لأنه قد مجدك.

وبنو الغريب يبنون أسوارك وملوكهم يخدمونك؛ لأنى بغضبى
ضربتك وبرضوانى رحمتك، وتفتح أبوابك دائماً، نهاراً وليلاً لا تغلق،
ليؤتى إليك بغنى الأمم وتقاد ملوكهم؛ لأن الأمة والمملكة التى لا
تخدمك تبيد وخراباً تخرب الأمم، مجد لبنان إليك يأتى السرو والسنديان
والشربين معاً لزينة مكان مقدسى وأمجد موضع رجلى.

وبنو الذين قهروك يسرون إليك خاضعين وكل الذين أهانوك يسجدون
لدى باطن قدميك ويدعونك مدينة الرب صهيون قدوس إسرائيل، عوضاً
عن كونك مهجورة ومبغضة بلا عابر بك أجعلك فخراً أبدياً، فرح دور
فدور، وترضعين لبن الأمم وترضعين ثدى ملوك وتعرفين أنى أنا الرب
مخلصك ووليك عزيز يعقوب، عوضاً عن النحاس أتى بالذهب وعوضاً
عن الحديد أتى بالفضة وعوضاً عن الخشب بالنحاس وعوضاً عن الحجارة
بالحديد، واجعل وكلاءك سلاماً وولاتك براً. لا يسمع بعد ظلم فى
أرضك ولا خراب أو سحق فى تخومك، بل تسمين أسوارك خلاصاً
وأبوابك تسييحاً، لا تكون لك بعد الشمس نوراً فى النهار ولا القمر ينير
لك مضيئاً، بل الرب يكون لك نوراً أبدياً وإلهك زيتتك، لا تغيب بعد
شمسك وقمرك لا ينقص لأن الرب يكون لك نوراً أبدياً وتكمل أيام
نوحك، وشعبك كلهم أبرار إلى الأبد يرثون الأرض غصن غرسى عمل
يدى لآتمجد، الصغير يصير ألفاً والحقير أمة قوية، أنا الرب فى وقته أسرع
به» (إشعيا ٦٠).

ومن الإصحاح السابق نستخلص ما يلى:

- ١ - ستكون أورشليم - وبالطبع سكانها اليهود - مصدر هداية للأمم: شعوبًا وملوكًا (٣).
- ٢ - سيطرة أورشليم - واليهود - على مقدرات الأمم وثرواتها (٥).
- ٣ - اتخاذ أمم العالم أورشليم قبله لهم، تهفو إليها نفوسهم، ويتجهون إليها بكل ما لهم (٩).
- ٤ - الويل والهلاك لكل من لم يخضع لسلطان أورشليم (١١).
- ٥ - استنزاف أورشليم لموارد الأمم والشعوب الأخرى (١٦).
- ٦ - الشعب اليهودي الأورشليمي قد حصل على براءة من الرب، وتمت مجازاته بميراث الأرض.

هذه النقاط المستقاة من نص إشعيا تشكل بؤرة الشعور في العقل الإسرائيلي، نعم كثير مما ورد في النص السابق قد يتفق وبعض مراحل التاريخ الإنساني، لكن الشرط الأساس، والأول في القائمة هو أن تصبح أورشليم مصدرًا لهداية الأمم: شعوبًا وملوكًا لم يتحقق حتى الآن، وأظنه لن يتحقق في ظل وجود من فيها.

وثمة نقطة ينبغي أن نشير إليها ونؤكد عليها في هذا المقام وهي أن الحديث عن أورشليم لا يعني الحديث عن مدينة ذات شوارع ومبانٍ، وإنما المعنى هنا من أورشليم هو اليهود، وخطابات الرب وأحاديثه إليها إنما هي موجهة لمن فيها من البشر لا إلى محتوياتها الصماء.

وتبقى أماننا إحدى القضايا الجوهرية في اللاهوت الأورشليمي والتي تتجسد في عبارة وردت في سفر الملوك الثاني ٣١/١٩ ونصها:

«لأنه من أورشليم تخرج البقية، والناجون من جبل صهيون».

ويعاود إشعياء تذكيرنا بالقضية ذاتها فيقول على لسان الرب:
 «لأنه من أورشليم تخرج بقية، وناجون من جبل صهيون»
 (٣٧/٣٢).

فما هي هذه البقية؟! ومن هم أولئك الناجون؟!
 في محاولة للتوفيق بين نصوص العهد القديم القاضية بهلاك الرب
 «يهوه» لشعبه المدلل إسرائيل نتيجة انحرافاتهم المتعددة الأبعاد من جانب،
 وتلك النصوص المشيرة بالخلاص وإعادة الرب لمجد هذا الشعب، حيث
 نشأت بالفعل معضلة يحتار العقل البشرى في فهمها: هلاك حتمى،
 وخلاص حتمى، تفتق العقل الإسرائيلي المسطر للعهد القديم عن حل
 جهنمى لا يختلف عن حلول إسرائيل المقترحة لعلاج مشاكل وقضايا
 العصر الحديث، وقد تمثل هذا الحل فى نظرية البقية.

لقد نشأت هذه النظرية فيما قبل النفى البابلى نتيجة شيوع روح بين
 اليهود ألقت باللوم عليهم نتيجة خيانتهم للرب والسير فى طريق الوثنية
 وعصيان أوامر «يهوه»، وكان مفادها على النحو التالى:

مهما تحول اليهود عن يهوديتهم، ومهما عصوا أوامر ربهم، ومهما
 خالفوا طقوس وعادات الدولة الداودية، فإن ثمة بقية من هذا الشعب
 الضال لن تنحرف ولن تنجرف فى هذا التيار الوثنى، بل ستبقى هذه
 البقية على «خيريتها» وإخلاصها للرب^(١).

ولهذه النظرية هدفان رئيسان: أولهما - التمكين من الإبقاء على

(١) إسماعيل راجى الفاروقى، أصول الصهيونية فى الدين اليهودى، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٢،

١٩٨٨، ص: ٦٣، ٦٤.

الشعب اليهودي كعنصر متفرد، وثانيهما - إزالة التناقض الذي أشرت إليه آنفاً بين وجوب الهلاك، وضرورة الخلاص والنجاة.

فوجود «بقية صالحة» لا يوجب «كلية الهلاك للشعب»، كما أنه ليس بالضرورة أن يكون الخلاص للشعب بأسره.

وهكذا يمكننا أن نستشف «الأبعاد العنصرية» لهذه النظرية، فاليهودي الصالح هو اليهودي العنصري الذي حافظ على نقاء عقيدته فلم ينحرف، وحافظ على عنصره فلم يندمج.

فوفقاً لهذه النظرية توفر العنصرية اليهودية الخلاص لمن تريد، وتوجب الهلاك على من تريد، كما أنه طالما أن الهلاك ليس مطلقاً، فبإمكان اليهودي التملص من القيود الأخلاقية وقتما يشاء، وعن طريق أخلاقه هو يخلق العنصرية، وذلك بعزوه أعمالها وخصائصها إلى البقية الصالحة المزعومة.

ولإيضاح نظرية البقية العنصرية وارتباطها بأورشليم القدس، نسوق بعض نصوصها:

يقول النبي إشعياء عن أورشليم وأرجاسها:

«ويل للأمة الخاطئة، الشعب الثقيل الإثم، نسل فاعلى الشر، أولاد المفسدين، تركوا الرب واستهانوا بقدوس إسرائيل، ارتدوا إلى وراء، علام تضربون بعد، تزدادون زيغاً، كل الرأس مريض وكل القلب سقيم، ومن أسفل القدم إلى الرأس ليس فيه صحة، بل جرح وإحباط... بلادكم خربة، مدنكم محرقة بالنار، أرضكم تاكلها غرباء قدامكم وهي خربة...» (١/٤ - ٧).

ويتكرر الويل والهلاك لأورشليم وسكانها في مواضع كثيرة من سفر إشعياء^(١)، ولعلنا هنا في حاجة لأن نسوق دليلاً آخر على الهلاك المنتظر لشعب الله وأورشليم، تأكيداً للحكم الرباني المحتمى الذي يمثل عنصراً أساساً في هذه النظرية العنصرية التي نتحدث عنها في هذا المقام.

يقول إشعياء:

«ويل لأريثيل^(٢) قرية نزل عليها داود، زيدوا سنة على سنة، لتدر الأعياد وأنا أضايق أريثيل فيكون نوح وحزن وتكون كأريثيل، وأحيط بك كالدائرة، وأضايق عليك بحصن وأقيم عليك متارس، فتتضعين وتتكلمين من الأرض، وينخفض قولك من التراب ويكون صوتك كخيال من الأرض ويشقشقق المارة، ويكون ذلك في لحظة بغتة، من قبل رب الجنود تفتقد برعد وزلزلة وصوت عظيم وعاصف ولهب نار آكلة» (١/٢٩ - ٦).

وتتوالى نبوءات إشعياء على أورشليم وشعبها وكلها تنذر بالهلاك (١٧/٧ - ٢٤، ٧/٢٢ - ١٤)، لكنه مع ذلك كله لا يغفل التلميح بشق النظرية الآخر، ألا وهو البقية الصالحة المزعومة.

فبعد الفقرات المنذرة بالهلاك في مطلع سفره - والتي سقتها في بداية هذه النصوص - نراه يتنبه إلى الجانب الآخر فيقول:

«فيقبت ابنة صهيون كمظلة في كرم، كخيمة في مقشاة، كمدينة محاصرة، لولا أن رب الجنود أبقي لنا بقية صغيرة، لصرنا مثل سدوم

(١) انظر على سبيل المثال: ١١/٨، ١١/١٨، ١/٣٠ - ١١.

(٢) أريثيل اسم يطلق على المكان المقدس داخل الهيكل حيث يسكن الإله، وأريثيل القرية هي أورشليم، حيث اتخذها الرب سكناً له.

وشابهنّا عمورة» (٨/١ - ٩).

فهناك بقية ناجية من الهلاك الحتمي القدرى اليهودى، منها يخرج المخلص الذى يرسم إشعياء لأعماله صورة وردية، ترتبط بأورشليم ارتباطاً وثيقاً (١/٣٢ - ٢، ٧/٣١ - ٨، ٦/٩ - ٧، ١/٣٥ - ١٠).

ويحدد لنا ملامح هذه البقية فيقول:

«ويكون فى ذلك اليوم أن بقية إسرائيل والناجين من بيت يعقوب لا يعودون يتوكلون أيضاً على ضاربهم، بل يتوكلون على الرب قدوس إسرائيل بالحق، ترجع البقية، بقية يعقوب إلى الله القدير؛ لأنه وإن كان شعبك يا إسرائيل كرم البحر ترجع بقية منه» (١٠/٢٠ - ٢٢).

وهكذا لا يباد شعب الرب ولا ينقرض بفضل تلك البقية الصالحة التى يرتبط وجودها بوجود أورشليم، فعدم وجود أورشليم يعنى عدم وجود البقية الناجية المشار إليها، وهذا فى حد ذاته يوضح لنا تضخم هذا اللاهوت الأورشليمى الذى يشير إلى حقيقة رسخت فى العقل اليهودى منذ فترة النفى، حيث بات بقاء أورشليم يعنى بقاء الشعب اليهودى، إذ إنه «من أورشليم تخرج بقية، والناجون من جبل صهيون» (ملوك ثان ١٩/٣١)، وهو ما عاد إشعياء ليؤكد به نفس الكلمات فى نبوءاته (٣٢/٣٧).

إن جوهر هذا اللاهوت المصطنع، إنما اعتمد على قضية حل التعارض الوارد فى النصوص المقدسة بالدرجة الأولى؛ لأن هذا التعارض سابق للنظرية التى عرضناها، ومن ثم فإن نظرية البقية الأورشليمية الصالحة الناجية هى نظرية مصطنعة، زادت من تضخيم مكانة أورشليم فى النفس

اليهودية في مرحلة متأخرة من تاريخ المدينة عند الإسرائيليين، لكنها تمكنت بحق من العقل اليهودي، والوجدان اليهودي، وحديثًا من الفكر الصهيوني الذي يريد حل مشاكله الفكرية - والاقتصادية - على حساب تاريخ أورشليم القدس.

والحديث عن لاهوت أورشليم القدس يطول، بطول نصوص سفر إشعيا على وجه الخصوص، وفيما ذكرناه كفاية لتوضيح المعالم، ولمن أراد الاستزادة فعليه باستقراء النصوص كلها، فهي كفيلة بتسطير سفر لا يقل في حجمه عن سفر إشعيا ذاته.

* * *

(١) إسماعيل راجي الفاروقي، أصول الصهيونية في الدين اليهودي، مكتبة وهبة - القاهرة، ط٢،

١٩٨٨، ص: ٦٣، ٦٤.

الخاتمة

مما لا شك فيه أن قضية القدس قد شغلت الكثيرين من الباحثين، المسلمين واليهود على السواء، ولقد جاءت هذه الدراسة لتضيف ما نحسبه جديداً وهو استقراء نصوص العهد القديم المقدسة، واستخراج ما تعالجه من قضايا مختلفة ذات علاقة وطيدة بالمدينة.

قدمت لنا النصوص العبرية أسماء وصفات عديدة للمدينة، فهي أورشليم ويوس والقدس ومدينة الله ومدينة داود، وسافكة الدماء ومدينة الدماء ونحسة الاسم...

وكان من المثير للانتباه أن أسماء المدينة الشهيرة: أورشليم ويوس والقدس، ليست أسماء عبرية على الإطلاق.

ولقد أشارت النصوص العبرية إلى قدم وجود المدينة قبل ظهور العبريين على خارطة أرض كنعان، وكان سكانها يوسيين كنعانيين عرب، لم ينقطع تواجدهم على مر التاريخ، حتى عندما تمكن الإسرائيليون منها لم يتمكنوا من طرد سكانها الأصليين، كما أكد سفر حزقيال على الأصل الكنعاني للمدينة، وأشارت الوثائق التاريخية المصرية وغيرها إلى حداثة الوجود الإسرائيلي إذا قيس بالوجود الكنعاني فيها.

وأثبتت النصوص العبرية موقف إله إسرائيل المتناقض تجاه المدينة، إذ لم تذكر إلا لماماً في الأسفار الخمسة، ولم تكن لها أية قداسة في حياة إبراهيم أو موسى أو يشوع والقضاة.

والموقف الإلهي الهوى من أورشليم القدس يميل إلى السلبية بوجه

عام، إلى أن اختارها داود كعاصمة له ونقل إليها تابوت العهد، ليتحول الاختيار الداوودي للمدينة إلى اختيار رباني.

ولما لم يكن لإله إسرائيل منذ بداية علاقته بشعبه بيت «يسكن» فيه ويستقر بعد ترحاله وتجوّاله، فقد فكر داود في بناء بيت للرب، إلا أن إله إسرائيل، وإن كان قد قبل من حيث المبدأ عملية تسكينه، فقد رفض أن يكون البناء على يد داود المملوكة بالدماء.

ويبنى سليمان بيت الرب في المدينة المختارة، تلك المدينة التي تغزل فيها الرب أحياناً، وصب عليها لعناته وجام غضبه أحياناً أخرى.

بل إن الرب قد سمح بتدمير أورشليم وتخريب بيته وسبي شعبه، عقاباً على ما اقترفته المدينة وأهلها من آثام وذنوب، وما دار بين ربوعها من مظاهر الشرك والعصيان.

والمتتبع للنصوص يجد أن الرب قد أعلن إشعال نار غضبه الأبدى على أورشليم (إرميا ١٧/٤)، لكننا لا نلبث أن نجد من النصوص ما يخالف ذلك، الأمر الذي يجعلنا نرجح أن نصوص العشق لأورشليم واختيارها وتقديسها إنما قد كتبت من قبل جماعة تختلف تماماً عن النصوص المضادة لها، ولعل الأولى جاءت من قبل مملكة يهوذا - معقل داود وسليمان، والثانية من قبل مملكة إسرائيل، التي يشهد تاريخها بتدنيس أورشليم والنفور منها.

ومن جانب آخر، تشير الدلائل النصية إلى «خصوصية» هيكل سليمان وصغر حجمه، بل ومساهمة الأغيار الرئيسة في بنائه، وكيف تذكر النصوص أنه لم يكن الهيكل السليماني الوحيد الذي بناه الملك سليمان،

إذ إنه في محاولاته لاستمالة نسائه وإرضائهن، بنى مذابح وبيوتاً لساثر الآلهة.

ولقد اشترط الرب لإقامته في هذا الهيكل اتباع سليمان لطريق داود أبيه، الطريق المستقيم، لكن العهد القديم يخبرنا أن سليمان لم يكن قلبه كاملاً مع الرب، ونستنتج من هذا أن الرب لم يكن قد سكن في هيكله في زمن سليمان.

كما اشترط إله إسرائيل لسكنائه كذلك، أن يستقيم شعبه وألا يسيروا وراء آلهة الأمم الأخرى، وإلا فلا سكنى له ولا استقرار في هذا البيت.

وسفرو الملوك يثبتان - لمن يؤمن بهذا الكتاب - أن بنى إسرائيل لم يعبدوا الرب حق عبادته خلال تاريخهم الكتابي كله سوى في فترات زمنية محدودة للغاية، وذلك يعنى عدم وجود الرب في الهيكل.

ولما كان الهيكل لا يحظى بالتقديس في عهد سليمان بانيه، لم يكن لنا أن نتوقع أن يحافظ الحلف المتصارع على الهيكل أو حتى يوجهون له أدنى قداسة، فمنع الإسرائيليون الشماليون من التوجه إليهم، بل وبنى لهم حكاهم هياكل منافسة في إطار عملية سياسية خالصة لا علاقة لها بالرب أو العقيدة.

وفي غمرة الانحراف الإسرائيلي يشن نبوخذنصر البابلي حملة ضارية ويحاصر أورشليم ويهدم الهيكل ويحرق المدينة وينهب كل ما تمكن منه، ويقوم بأسر معظم اليهود إلى بابل، لتدور الدائرة على البابليين، ويمكن الملك الفارسي اليهود من العودة، ويعينهم في بناء الهيكل مرة ثانية، وإن حدث تغييرات معمارية بالطبع في الهيكل الجديد من حيث اتساع مساحته

واختلاف مواد بنائه، وهذا ما يتضح جلياً من مقارنة نصوص بناء الهيكل الأول في سفر الملوك، ونصوص بناء الهيكل الثاني في سفر عزرا.

وجدير بالذكر أن كثيراً من اليهود المنفيين في بابل قد فضلوا البقاء في المقر الجديد ولم يفكروا في العودة إلى اورشليم، ولو كان للمدينة أو للهيكل قداسة ومكانة ما تأخروا في العودة إليهما.

وتتوالى الأمم والشعوب الغازية لأورشليم، وتخرب المدينة أكثر من مرة، ويهدم الهيكل مرة ثانية في عهد تيتوس الروماني، ثم تمحى بعده بعدة عقود معالم هذا البيت ويقام مكانه معبد لإله روماني وثني وليمنع اليهود من العيش في اورشليم، بل وتم تغيير اسمها إلى إيليا كابيتولينا.

وما زال الاعتقاد بأن جداراً سليمانياً باقياً منذ ثلاثة آلاف عام، ييكنى إلى جواره اليهود، مع أن البحث والتنقيب والتحليل لما تم اكتشافه لا يشير إلى وجود أثر يهودي للهيكل أو غيره من مخلفات اليهود، إذ كان وجودهم في اورشليم ككربات تلج مسائية، ما لبثت أن ذابت عندما اتبلج الصبح وأشرقت الشمس بأنوارها.

فهل يستمر اليهود في البكاء على الخائن؟!

لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تغير الأساطير حقائق التاريخ مهما طال البكاء وارتفع الصياح.

أما عن الصخرة المقدسة فقد كانت كذلك محل «أسطورة» من قبل الخيال اليهودي على مر التاريخ، فزعموا أنها هي صخرة المسجد، مع أن التلمود يصف لنا صخرة أخرى، لا يمكن أن تقاوم غزوات بابل واليونان

والرومان والصلبيين وغيرهم.

ولم تكن مكانة أورشليم عند آباء إسرائيل وملوكهم بأفضل من مكانتها عند إله إسرائيل نفسه، لقد كانت أورشليم محل اعتداء وتخريب وسلب ونهب من قبل الإسرائيليين أنفسهم، كما كانت محل شرك وكفر وفسوق، ناهيك عن التآمر والقتل وسفك الدماء بين أسوارها وخلف أبوابها.

منذ أن دخل بنو إسرائيل أورشليم، وإبان أزهى عصورها في زمن داود وسليمان، ثم خلال حكم ورثة سليمان، لم تشهد تقديساً أو احتراماً أو تقديراً إلا لفترات محدودة للغاية، وكانت محل كل سوء وشر، بل إن داود وسليمان لم يزعما القداسة للمدينة على الإطلاق، وكل ما كان في عصرهما هو ازدهار أورشليم كعاصمة سياسية، أخذت طابعاً دينياً بنقل تابوت العهد في زمن داود، ثم بناء الهيكل السلیمانی «الخاص» به.

أما أثناء النفي البابلي، فقد أصبحت أورشليم رمزاً للملك قد ضاع، ووطن قد دمر، ومن ثم بدأ الفكر الديني اليهودي ينسج خيوطاً مقدسة أحاطت بأورشليم، لكنها خيوط واهية للغاية، إذ إنها من صنع مجموعة من البشر، كانت دوافعهم «وظيفية» أكثر منها «إيمانية».

تحولت أورشليم وتحول معها الهيكل إلى أساس إيماني عقدي، وأصبح المرء لا يكون يهودياً كامل اليهودية إلا في أورشليم، بل أصبحت أورشليم ذاتها بديلاً عن الإيمان، فمن عاش فيها لم يمرض، ومن سكنها غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

إن الفكر الأسطوري الذي لازم الوجود اليهودي على مسرح التاريخ،

لم يكن ليترك أورشليم ولا هيكلها، فالانتماء الأسطوري اليهودي الذي تتضح معالمه منذ بداية خلق الكون، واستمر مع هؤلاء القوم في حلهم وترحالهم، قد تضخم بفعل الأحداث المصاحبة، ليبلغ ذروته فيما يتعلق بأورشليم القدس.

بعد هذه النتائج التي خلصنا إليها من إعادة قراءة نصوص العهد القديم، نحن - العرب والمسلمون - بحاجة ماسة إلى «إعادة خلق أورشليم» القديمة، بحاجة إلى إعادة كتابة تاريخها، لا وفق وجهة النظر الإسلامية، فهذه لا تلزم أحداً سوانا، ولكن وفق وجهة النظر اليهودية العبرية التي تجسدها النصوص المقدسة التي بين أيدينا.

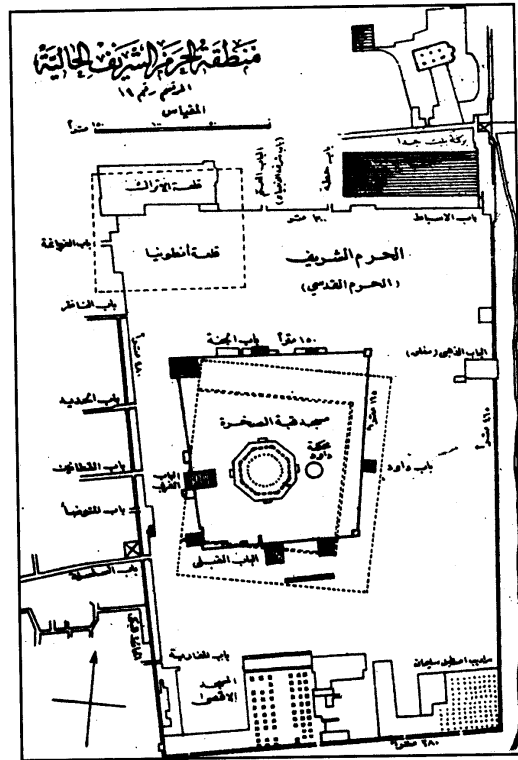
علينا أن نتيح للعالم كله أن يقرأ النصوص كما هي، من واقعها التجميعي، بحيث لا يكتفى البعض بعبارات المديح والتمجيد للمدينة، ويغض الطرف عن سائر العبارات.

علينا أن نقول للعالم كله: هذه هي أورشليم القدس، هذا هو تاريخها، هذا هو هيكلها، وتلك هي مكانتها عند المتشدين بقداستها في العصر الحديث.

وحتى هذا الحين، علينا أن نهى أنفسنا لفهم ما لنا من تاريخ، وما لنا من حقوق، والعاقبة للفاهمين.

* * *

قائمة بخرائط القدس



موجز تاريخ أورشليم القدس

موجز تاريخ أورشليم القدس (*)

- ٣٠٠٠ ق. م أقيمت أورشليم على هضبة تعلو نبع جيحون
- ٢٠٠٠ ق. م ذكرت أورشليم لأول مرة باسمها هذا في النصوص المصرية، وتشير أسماء حكامها إلى أصولهم السامية.
- ١٨٠٠ ق. م ذكرت مرة أخرى في نصوص مصرية رسمية تعرف بنصوص اللغة، وكان لها حاكم واحد من أصل سامي.
- ١٧٥٠ ق. م ظهور إبراهيم (عليه السلام) وقصة الذبيح، وتسمى هذه الفترة عند اليهود بعصر الآباء.
- ١٢٣٠ ق. م حروب يوشع بن نون في أرض كنعان (فلسطين).

* * *

(*) التواريخ هنا معظمها تقريبى ومأخوذة عن:

مثير بن دوف، الإنسان والحجر في أورشليم، تل أبيب: ١٩٨٩، ص ٢٧٦ - ٢٧٨، موشى ميلنر ويهودا سوليمون، أورشليم، إصدارات أقيمت، إسرائيل، ص ١٦، ١٧.

فترة الهيكل الأول (فى التاريخ اليهودى)

- ١٠٠٤ - ٩٦٥ ق. م • مملكة داود الموحدة.
- ٩٩٧ ق. م • احتلال داود لأورشليم المدينة اليبوسية الكنعانية وجعلها عاصمة لمملكته.
- ٩٦٦ ق. م • شراء داود لبيدر أرونة اليبوسى وبناء مذبح للرب فيه.
- ٩٦٥ - ٩٢٨ ق. م • مملكة سليمان فى القدس وبناء الهيكل وقصر سليمان.
- ٩٢٨ ق. م • رحبعام بن سليمان يعتلى عرش يهوذا وإسرائيل.
- ٩٢٣ ق. م • انقسام المملكة إلى مملكتين: يهوذا وعاصمتها أورشليم جنوباً، إسرائيل وعاصمتها شكيم (نابلس) شمالاً.
- ٧٠١ ق. م • سنحاريب ملك آشور يحاصر أورشليم.
- ٥٩٨ ق. م • نبوخذنصر - ملك بابل - يحاصر أورشليم ويأخذ ملكها يهوياكين وبعض يهودها إلى بابل.
- ٥٨٦ ق. م • نبوخذنصر يحاصر أورشليم مرة ثانية

ويحتلها ويحرقها ويدمر الهيكل (التدمير الأول).

٥٣٧ ق. م • كورش الملك الفارسي يتغلب على بابل، ويعلن عودة اليهود إلى أورشليم.

فترة الهيكل الثاني (في التاريخ اليهودي)

٥١٥ ق. م • إتمام المرحلة الأولى من إعادة بناء الهيكل المدمر.

٤٤٠ ق. م • عودة النبي نحميا من فارس إلى أورشليم وإعادة بناء أسوار أورشليم وأبوابها المتهدمة.

٤٣٥ ق. م • النبي عزرا يعاون نحميا في مهمته من الناحية الروحية.

٣٣٢ ق. م • احتلال الإسكندر الأكبر لأورشليم.

٢٠٢ ق. م • احتلال القائد البطلمي المصري سكوباس لأورشليم.

١٩٨ ق. م • أنطيوخوس الثالث يحتل أورشليم ويعاون اليهود في إعمار الهيكل.

- أنطيوخوس الرابع «أفياتوس» يدخل
أورشليم، وينهب محتويات الهيكل. ١٦٩ ق. م
- يهودا المكابي يحتل أورشليم ويطهر الهيكل
ويعيد تدشينه. ١٦٤ ق. م
- مملكة الحشمونيين. ١٦٤ - ٣٧ ق. م
- بمحيدس - القائد العسكرى اليونانى السورى
- يحتل أورشليم من اليهود. ١٦١ ق. م
- عودة يهوئانان الحشمونى أصغر أبناء منياهو
إلى أورشليم وتحصين جبل البيت. ١٥٢ ق. م
- احتلال شمعون المكابى للقلعة فى أورشليم
وتأمين جبل البيت. ١٤١ ق. م
- فومبيوس يحتل أورشليم وجبل البيت،
وبداية الحكم الرومانى. ٦٣ ق. م
- حدوث اضطرابات فى روما، واستقلال
اليهودى منياهو أنطيوخونوس بأورشليم. ٤٠ - ٣٧ ق. م
- عودة روما إلى قوتها واحتلالها لأورشليم
مرة أخرى. ٣٨ ق. م
- هورودس يسيطر على أورشليم تحت حماية
٣٧ - ٤ ق. م

قياصرة روما، وتوسيع جبل البيت وبنية
القصر والقلعة الجديدة.

- محاولة صلب المسيح وقتله. م ٣٤
- سيطرة أجريوس الأول على أورشليم وإقامة
السور الثالث. م ٤١ - ٤٤
- ثورة اليهود الكبرى مع الرومان. م ٦٦ - ٧٠
- سقوط أورشليم في أيدي الرومان وتدمير
الهيكل تمامًا في التاسع من أغسطس،
وإجلاء اليهود تمامًا من المدينة، وسلب
محتويات الهيكل. م ٧٠

إيليا كابيتولينا

- ثورة باركوكبا ضد الرومان. م ١٣٢ - ١٣٥
- القيصروناني هدرينوس يبنى أورشليم
كمدينة رومانية ويغير اسمها إلى إيليا
كابيتولينا، ويؤسس معبدًا للإله جوبتر مكان
الهيكل، ويحظر على اليهود دخول المدينة. م ١٣٥

* * *

الفترة البيزنطية

- ٣٢٣ م القيصر الروماني قسطنطينوس وأمه هيلانا يبنيان كنيسة: الصليب والقبر والبعث وكنيسة القيامة على جبل الزيتون، بناء السور مجدداً حول جبل صهيون.
- ٣٦١ - ٣٦٣ م القيصر الروماني يولييانوس يسمح لليهود بالعودة إلى أورشليم
- ٦١٤ - ٦٢٩ م الاحتلال الفارسي لأورشليم.
- ٦٢٩ - ٦٣٨ م الاحتلال البيزنطي لأورشليم.

الفترة العربية الأولى

- ٦٣٨ م الفتح الإسلامي لأورشليم واستلام الخليفة عمر بن الخطاب لمفتاح المدينة.
- ٦٩١ م تأسيس مسجد قبة الصخرة في عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان، وعودة اليهود إلى السكنى في أورشليم.
- ٧٥٠ - ٩٦٩ م أورشليم تحت حكم الأمويين.
- ٩٦٩ - ١٠٧١ م أورشليم تحت حكم العباسيين.

- أورشليم تحت حكم السلاجقة الأتراك. م ١٠٧٨
- أورشليم تحت حكم المصريين. م ١٠٩٦

الفترة الصليبية الأولى

- الاحتلال الصليبي لأورشليم والمذابح التي وقعت بالمسلمين واليهود وحظر عودة اليهود إلى المدينة. م ١٠٩٩

الفترة الأيوبية

- صلاح الدين يسترد أورشليم، ويسمح لليهود بالعودة إلى أورشليم. م ١١٨٧
- الفترة الصليبية الثانية حيث بقى جبل البيت فقط في أيدي المسلمين مع سماح المسلمين لغيرهم بزيارة الأماكن المقدسة. م ١٢٢٩ - ١٢٤٤
- احتلال التار لأورشليم وتدميرها. م ١٢٦٠

الفترة المملوكية

- الحكم المملوكي وعودة الاستيطان اليهودي م ١٢٦٧

- فى اورشليم.
- بداية الاستيطان فى الحى اليهودى من اورشليم.
- احتلال المنغوليين للمدينة لفترة محدودة وتدميرها.

الفترة العثمانية

- الفتح التركى للمدينة على يدى السلطان سليم الأول.
- السلطان سليمان القانونى يبنى سور اورشليم وأبوابها، وتشجيع اليهود على السكنى فى المدينة.
- بداية البناء خارج أسوار اورشليم.
- تأسيس بلدية اورشليم.
- تدشين خط سكة حديد يافا - اورشليم.
- زيارة هرتزل لأورشليم.
- الحرب العالمية الأولى.

* * *

فترة الانتداب البريطانى

- ١٩١٨م خضوع أورشليم للجيش البريطانى بقيادة اللبى.
- ١٩٢٥ - ١٩٣٨م إقامة العديد من المؤسسات اليهودية مثل: الجامعة العبرية، ومستشفى هواسا وغيرها.
- ١٩٤٧م الأمم المتحدة تعلن إنهاء الانتداب البريطانى على فلسطين وتقسيم البلاد إلى دولتين: يهودية وعربية، وتدويل أورشليم.
- ١٩٤٨م الحرب بين العرب وإسرائيل.

الفترة الإسرائيلية

- ١٩٤٩م إعلان أورشليم عاصمة لإسرائيل.
- ١٩٦٧م احتلال إسرائيل للقدس العربية إثر حرب حزيران/ يونيو وإعلان توحيد المدينة من قبل إسرائيل.

والتاريخ لم ينته بعد.

* * *

**قائمة بملوك يهوذا
فى أورشليم
بعد موت سليمان وحتى النفى البابلى**

قائمة بملوك يهوذا هي أورشليم

بعد موت سليمان وحتى النفي البابلي (*)

١ - رحبعام بن سليمان	٩٣٣ - ٩١٧ ق. م
٢ - أيام بن رحبعام	٩١٧ - ٩١٥ ق. م
٣ - آسا بن أيام	٩١٥ - ٨٧٥ ق. م
٤ - يهوشافاط بن آسا	٨٧٥ - ٨٥١ ق. م
٥ - يهورام (يورام) بن يهوشافاط	٨٥١ - ٨٤٤ ق. م
٦ - أحازيا بن يهورام	٨٤٤ - ٨٤٣ ق. م
٧ - عثاليا (أم أحازيا)	٨٤٣ - ٨٣٧ ق. م
٨ - يهوآش (يوآش) بن أحازيا	٨٣٧ - ٧٩٨ ق. م
٩ - أمصيا بن يوآش	٧٩٨ - ٧٨٠ ق. م
١٠ - عزريا بن أمصيا	٧٨٠ - ٧٤٠ ق. م
١١ - يوآم بن عزريا	٧٤٠ - ٧٣٥ ق. م
١٢ - آحاز بن يوآم	٧٣٥ - ٧٢٠ ق. م

(*) محمد خليفة حسن، مدخل نقدي إلى أسفار العهد القديم، د. ن، القاهرة، ١٩٩٦، ص: ٨٠ -

- ١٣ - حزقيا بن آحاز ٧٢٠ - ٦٩٢ ق. م
 ١٤ - منسى بن حزقيا ٦٩٢ - ٦٣٩ ق. م
 ١٥ - يوشيا بن منسى ٦٣٩ - ٦٠٩ ق. م
 ١٦ - يهو آحاز بن يوشيا ٦٠٩ ق. م
 ١٧ - يهوياقيم بن يوشيا ٦٠٩ - ٥٩٨ ق. م
 ١٨ - يهوياكين بن يهوياقيم (ثلاثة شهور) ٥٩٨ - ٥٩٧ ق. م
 ١٩ - صدقيا بن يوشيا ٥٩٧ - ٥٨٦ ق. م

* * *

المصادر والمراجع

أولاً - العربية :**• أحمد سوسة :**

- العرب واليهود في التاريخ، العربي للإعلان والطباعة والنشر، دمشق، ط٢، د.ت.
- حضارة وادي الرافدين بين الساميين والسومريين، منشورات وزارة الثقافة والإعلام العراقية، سلسلة دراسات (٢١٤)، دار الرشيد للنشر، ١٩٨٠.

• أحمد عبد الفتور عطار :

- عروبة فلسطين والقدس، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٧٤.

• إسرائيل ولقنسون :

- تاريخ اللغات السامية، القاهرة، ١٩٢٩.

• إسماعيل واجي الفاروقي :

- أصول الصهيونية في الدير اليهودي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٢، ١٩٨٨.

• أمنون كوهين :

- القدس: دراسات في تاريخ المدينة، ترجمة سلمان مصالحة، القدس، ١٩٩٠.

• جودت السعد :

- أوهام التاريخ اليهودي، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، ١٩٩٨.

- حسن ظاظا وآخرون،
- الصهيونية العالمية وإسرائيل، القاهرة، ١٩٧١.
- أبحاث في الفكر اليهودي، دار القلم، دمشق، ١٩٨٧.
- حسين جميل،
- بطلان الأسس التي أقيم عليها وجود إسرائيل على الأرض العربية، وزارة الثقافة والإرشاد، السلسلة الإعلامية (٢)، بغداد، ١٩٦٨.
- حسين حمادة،
- آثار فلسطين، دار قتيبة، دمشق، ١٩٨٧.
- خالد محمد غازي،
- القدس: سيرة ذاتية، دار الهدى للنشر والتوزيع، المنيا، ١٩٩٨.
- روجيه جارودي،
- فلسطين أرض الرسالات الإلهية، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دار التراث ، د.ت.
- سبتيينو موسكاتي،
- الحضارات السامية القديمة، ترجمة: السيد يعقوب بكر، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، د.ت.
- ستيقن ونسيان،
- تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة: السيد البازي العريني، بيروت، ط١، ١٩٦٧.

- سيد فرج راشد:
- القدس: عربية وإسلامية، د.ن، ط٢، ١٩٩٥.
- شفيق مقار:
- المسيحية والتوراة، رياض الريس للكتب والنشر، لندن، قبرص، ١٩٩٢.
- طه باقر:
- مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، ج٢.
- ظفر الإسلام خان:
- تاريخ فلسطين القديم، دار النفائس، بيروت، ط٢، ١٩٧٩.
- عبد الحميد زايد:
- مصر الخالدة، القاهرة، ١٩٦٦.
- القدس الخالدة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة تاريخ المصريين (١٩٧) القاهرة، ٢٠٠٠.
- فرانسيس داندس (إعداد):
- تفسير الكتاب المقدس، دار منشورات النفير، بيروت، ١٩٦٦.
- فؤاد حسنين علي:
- فلسطين العربية، القاهرة، ١٩٧٣.
- فيصل صالح الخيري:
- القدس: الآثار تنسف الأساطير، مقال في «صحيفة الأسبوع»، القاهرة ٢٠٠٠/٩/٤.

• **كارين أرمسترونج:**

- القدس: مدينة واحدة، ثلاث عقائد، ترجمة فاطمة نصر ومحمد عناني، سطور، القاهرة، ١٩٩٨.

• **متى المسكين:**

- تاريخ بني إسرائيل، وادي النظرون، القاهرة، ١٩٩٧.

• **محمد صبيح:**

- القدس ومعاركنا الكبرى، دار الشعب، القاهرة ١٩٧١.

• **موفق محادين:**

- دورة الدين اليهودي، دار الكنوز الأدبية، بيروت، ١٩٩٧.

• **هابيل فهمي عبد الملك:**

- أورشليم القدس منذ أقدم العصور وحتى بداية العصر الروماني: دراسة تاريخية وثائقية في: القدس التاريخ والمستقبل، أبحاث الندوة الدولية للقدس، مركز دراسات المستقبل بجامعة أسبوت ٢٩ - ٣٠ من أكتوبر ١٩٩٦، تحرير: محمد إبراهيم منصور، جامعة أسبوت ١٩٩٧.

* * *

• **ثانياً - العبرية:**

• **إشعياهو ليفوفيتس:**

- اليهودية، الشعب اليهودي، ودولة إسرائيل، أورشليم وتل أبيب، ١٩٧٩.

• **دائرة المعارف المقاترية (الكتابية):**

- إصدارات مؤسسة بياك، القدس، ١٩٥٨.

• ماثيرين دوف:

- الإنسان والحجر في أورشليم، تل أبيب، ١٩٨٩.

• موسى برلمان وتيدي كوثيك:

- أورشليم، حيفا، ١٩٧٧.

- وحدة المناهج الدراسية بوزارة التعليم والثقافة الإسرائيلية (إعداد)، دروس في التاريخ للمدارس الحكومية، ط١، بدون تاريخ.

• يوحنا إهاروني:

- أرض إسرائيل في زمن العهد القديم: جغرافيا تاريخية، ١٩٨٨.

ثالثا - الإنجليزية:

Demetri Baramaki,

"From Ancient Times to the Begenning of Muslim Era" in: Jerusalem, the Key to World Peace, Islamic Council of Eurpse, London, 1980.

Encyclopaedia Judaica, Jerusalem, 1973.

Luke, H., & Keith Roach,

Handbook of Palestine and Trans - Jordan, 3rd. ed., Macmillan, & Co. Ltd., London, 1934.

Paul Johnson,

A History of the Jews, New York, Harper & Row, 1988.

فهرس الكتاب

الصفحة	الموضوع
٣	• مقدمة
٧	• تمهيد
	• الفصل الأول
	أورشليم القدس
١٣	أسمائها . . عروبها . . جغرافيتها
	• الفصل الثاني
٥٧	يهوه وأورشليم أو الرب والمدينة
	• الفصل الثالث
٨٧	الهيكل : حقائق وأساطير
	• الفصل الرابع
١٢٧	مكانة أورشليم عند آباء إسرائيل وملوكهم
	• الفصل الخامس
١٥٣	اللاموت الأورشليمي
١٧٥	• خاتمة
١٨٣	• قائمة بخرائط القدس
١٨٧	• موجز تاريخ المدينة
	• قائمة بملوك يهوذا في أورشليم بعد موت سليمان وحتى
١٩٧	النفي البابلي
٢٠١	• قائمة المصادر والمراجع
٢٠٧	• فهرس الكتاب

مصر حتى الآن من سلسلة كتاب القدس عن مركز الإعلام العربي



(١) الطهر يتهدد بيت المقدس

للشاعر الفلسطيني الدكتور / أحمد صليبي النجدي

(٢) القدس قضية أمة

للشيخ الدكتور / جاسم بن محمد بن مهدي الباعين

(٣) البيئات الأقدس والدم الفلسطيني

للأستاذ الدكتور / جابر قمبحة

(٤) أورشليم القدس في الفكر الديني الإسرائيلي

للأستاذ الدكتور / محمد جلاء إدريس

ثمن النسخة في مصر ٥ جنيهات شاملة أجور البريد.

ثمن النسخة في البلاد العربية ٣ دولارات شاملة أجور البريد.

ثمن النسخة في باقي دول العالم ٥ دولارات شاملة أجور البريد.

تطلب من مركز الإعلام العربي

ص.ب ٩٣ الهرم - الجيزة - مصر ت: ٣٨٣٣٣١٠ / ف: ٣٨٥٧١٥١

E.Mail: www.media-c@ie.com.

البريد الإلكتروني

www.Resalah4u.com

موقع المركز على الإنترنت

حساب رقم (٤٨٧٨١) المصرف الإسلامي الدولي للاستثمار والتنمية - القاهرة.

أو حساب رقم (٤٠٣٧١) بنك القاهرة - فرع الهرم - الوحدة القبلية.